

محمد الجمل

# أطياف مسافر في الغروب

رواية

الكتاب : أطيايف مسافر في الغروب (رواية)

الكاتب: محمد الجمل

الطبعة: 2016

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373



<http://www.apatop.com> E-mail: [news@apatop.com](mailto:news@apatop.com)

**All rights reserved.** No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

**جميع الحقوق محفوظة :** لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دارالكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الجمل ، محمد

أطيايف مسافر في الغروب / محمد الجمل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

168 ص ، 18 سم .

الترقيم الدولي: 5 – 115 – 446 – 977 – 978

رقم الإيداع : 10124

أ – العنوان

# أطراف محافر في الضروب

وكالة الصحافة العربية  
«ناشرون»





## توفيق مختار

يرتبط توفيق مختار في ذاكرتي بالاشتراكية والأبوة الخالية من الأوامر والنواهي، ثم بعد تطور العلاقة، بلعب الورق، كنت أعمل بمعسكر "فايد"، بعد انحسار العدوان الثلاثي عام 56، وأقضي إجازتي الأسبوعية مع أهلي في الإسكندرية دعائي أخي هشام، الذي كان طالبا بكلية الآداب/ قسم فلسفه، وفي إحدى إجازاتي، لزيارة توفيق مختار في منزله "بمحرم بك".

استقبلني توفيق في صالون منزله بهدوء زائد وملامح خالية من أي تعبير، وهو جالس خلف مكتب كبير، وأمامه مجموعة من الشباب الجالسين، بدوا لي كتلاميذ بتجمعون حول أستاذهم، يتناقشون ويتحاورون في كل شيء بحرية وإندفاع دون أية ضوابط أو محاذير، وبدا المشهد كمنتدى ثقافي، يرفع شعار حرية التعبير، تحت رعاية توفيق الذي حرص علي تجنب صفات الأب الحازم أو المدرس الصارم أو صاحب المكان، كأنما هو الحاضر الغائب، لا يتدخل إلا لمراجعة فكرة أو تصحيح مسار أو فض نزاع، وأخذت أتأمل ملامحه بدهشة وفضول.. نحيف قصير القامة، له رأس صغيرة، يعلوه شعر أسود مفروق من الجنب الأيسر، وجه أبيض ذو ملامح متناسقه، يشي بأصول تركية.

يمكن أن تطمئن إليه كما تطمئن إلى مقعد خال علمت فيما بعد أن أمه تركية، ولا تتحدث العربية، وأبوه مغربي دارت المناقشات، وقتها حول

أحاديث الساعة، الاشتراكية والقومية العربية والوجودية. فهدت من خلال المتابعة أنه مدرس الفلسفة والاجتماع وعلم النفس في مدرسة العباسية، ومعظم الحاضرين من تلاميذه أو أصدقائهم، الذين أصبحوا فيما بعد مدرسين وصحفيين وأدباء، وأصبحت تربطني بهم علاقات صداقة وطيدة، من أمثال صابر فخري، وفتحى عبد الرازق، وموريس شاكر.

استدعاني توفيق للجلوس بجواره انفصلنا عن صخب المجلس، واستغرقتنا في حديث شيق طويل، أراد من خلاله أن يتعرف على أفكاري، أسهبت في الحديث عن الاشتراكية، التي تعرفت عليها وشغلت بها، من خلال قراءتي، وعن طريق أنور بدير، زميلي في الجيش، الذي قرأ كتابي "التفسير المادي للتاريخ"، ورأس المال" لكارل ماركس، في خندقه ونحن نخدم في العريش ورفح، قبل العدوان الثلاثي انبهر بأفكاري، أدركت أنها تتمشى مع أفكاره، زاد إعجابه بي عندما جمعنا، أثناء الحديث حيناً لبعده الناصر، باعتباره النموذج والمثل الأعلى لما نريد أن يتحقق، وهو يحققه بالنيابة عنا، من خلال نظام أبوي.

وبمرور الوقت أصبحت ضيفاً دائماً على مجالس توفيق، أقضي معه معظم أوقات إجازاتي، وقد تعودت الدخول معه في مناقشات، افترض من خلالها صحة آرائي، بحيث لا تقبل المراجعة بدافع من غواية الحقائق الثابتة، ثم حدثت المفاجأة التي أذهلتني. ذهبت إليه ذات مساء، فوجدته يتوسط تلاميذه حول المكتب، ويلعبون لعبة "البوكر"، وهي إحدى ألعاب "الكوتشينة"، وهم يلعبونها بقروش قليلة، وتمرور الوقت اختلط مجلس الجدل والمناقشة وصراع الأفكار، باللعب، ويحرص توفيق في نهاية كل جولة

أن يكون خاسراً، وأن يتوزع المكسب على اللاعبين بشكل شبه متساو  
كأنما يدير لعبة عقلية بمهارة واقترار.

أعترف بأن شخصية توفيق قد حيرتني كثيراً، قلت له في جلسة  
خاصة، وأنا أعرف أنه لا يضيق بأي حوار مهما كان صريحاً، إنني أرى في  
لعب الورق رذيلة لا تتمشى مع أفكارنا وتوجهاتنا، قال لي بمنطق يشي  
بدرجة من المعقولية: "سعد زغلول كان زعيماً تاريخياً، ومع ذلك كان يلعب  
الورق" ولما قلت له إن ثورته انتهت بالفشل ولم يخرج الإنجليز من مصر،  
عاد يقول: "فشلت ثورته لأسباب كثيرة، ليس من ضمنها أنه كان يلعب  
الورق"، عدت أقول له بلهجة غاضبة لا تخلو من احتجاج: "ماذا يفيدنا  
لعب الورق؟!". قال بحماس منقطع النظر، وبمنطق مدرس فلسفة: "لعبة  
البوكر تحمل في طياتها كل قوانين الوجود، وقوانين السيادة والاقتصاد،  
وتناقضات الحياة، قلت له باستنكار واستخفاف- هل تدخل هذ اللعبة في  
باب الاشتراكية والقومية العربية ونظرية الكفياة والعدل!؟

عاد يقول بخبرة المتمرس في القدرة علي المجادلة بحكم تخصصه  
الفلسفي: "اعتبرها لعبة من الألعاب إلى يسفيد منها العقل.. اللعب  
مطلوب مثل الجد".

أخذت لقاءتنا تتباعد بحكم انشغالات كثيرة، وهموم كثيرة، وهموم  
خاصة، وتفرق شمل مجلس الأصدقاء، شغلت بحياة الجندي وما صحبها من  
أحداث سياسية متسارعة، الوحدة مع سوريا ثم الانفصال، حرب اليمن

وتوابعها الاقتصادية والسياسية، انتهزت فرصة الخدمة بالقاهرة، فتزوجت قبل حرب يونيو بعام، تركت زوجتي وطفلي الرضيع "أكرم"، بعد إغلاق الخليج في وجه السفن الإسرائيلية، لأخدم في العريش، عدت مع العائدين أثناء الانسحاب الشهير غير المرتب، عدت مرة أخرى بعد إعادة بناء القوات المسلحة، بعد النكسة، لأحتل موقعي الدفاعي غربي مدينة السويس.

كان لتلاميذ مختار شأن آخر، انتقلوا جميعا من الإسكندرية للعمل بالقاهرة. أصبح صابر فخري أديبا وصحفيا في مجلة "المصور" أصبح فتحي عبدالرازق أديبا وصحفيا في مجلة روزاليوسف.

أصبح موريس شاعر صحفيا مرموقا في مجلة صباح الخير، عمل أخي هشام صحفيا بالأهرام ثم وافته الفرصة للعمل بالكويت، حيث عمل محررا بصحيفة "السياسة" كان قد قرر ألا تتعدى غربته الثلاث سنوات، يتمكن من خلالها من حيازة "شقة بالقاهرة" وسيارة وتكاليف الزواج، ثم استدرجته إغراءات مادية، عجز عن مقاومتها، فبقي في الكويت عشرين عاما، ولم يعد إلا بعد حادث "المنصة".

كان لتوفيق مختار طريقه هو الآخر، ترك التدريس وعمل مديرا لمكتب الشكاوى بمحافظة الإسكندرية، رأى في هذا العمل دورا اجتماعيا، يساند من خلاله طبقة المظلومين والمطحونين، بما يتمشى مع عقيدته الاشتراكية، وعندما التقيته وهنأته قال لي بنغمة أيدولوجية: "قررت تأجيل الانشغال بالبنية الفوقية للمجتمع "الفكر والثقافة" لأشارك في حل

مشاكل البنية التحتية "العمل الميداني" وعمل بأمانة مطلقة، حتى أنه كان يرفض حفظ الشكاوى التي تتعرض لكبار المسؤولين، الأمر الذي ترتب عليه نقله إلى إدارة "حي غزل" بالمحافظة، ليشغل وظيفة إدارية خامدة في منطقة الظل، وعندما مات جمال عبد الناصر قال لي وهو يمر بحالة اكتئاب: "مات أبي الحقيقي.. لم يعد هناك أمل"، لم أتحمس له "موت عبد الناصر ليس نهاية، وإنما هو سفر في الغروب.. ستبقى مبادئه وأفكاره".. بدا يائساً لقولى. لا يعير قولي اهتماماً، فعدت أقول له: "الاشتراكية التي تبناها ضد عبادة الفرد.. مع إرادة الجموع في مواصلة النضال"، اتهمني بأنني أقول كلاماً نظرياً، لا يعني ولا يثمن من جوع، وإنه لا يريد أن يسمع مثل هذا الكلام عدت أقول له بغيظ واحتجاج: "أنت ابن شرعي للنظام منذ الملك مينا.. أنا لا تختلف عن دعاة دعوة الخلافة الإسلامية.. لو سمعك "كارل ماركس" لأشاح بوجه عنك". ظل توفيق مختار يبحث عن مطلق أبوي آخر، وافته فرصة للعمل بالتدريس في "ليبيا"، لم يتردد في القبول، كان معجباً ب"معمار القذافي". كانت فرصة لمتابعة نشاطه على الأرض الليبية، قرأ "الكتاب الأخضر" تضاعف إعجابه بالرجل وكتابه، أصبح مثله الأعلى، مثلما أصبح "الكتاب الأخضر" كتاباً مقدساً في رأيه، يطرح نظرة عالمية فريدة في حكم الشعوب، تجمع بين الاشتراكية وديمقراطية حقيقية، أطلعني على أفكاره تلك خلال إجازاته المتكررة لمصر، قلت له في إحدى إجازاته: "أخشى أن تكون قد استبدلت رجلاً برجل"، ورد علي بلا تردد: "ألم يقل عبدالناصر إن القذافي يذكرني بشبابي؟!".

عاد توفيق من ليبيا وقد أصبحت الأيام غير الأيام، سألني عما يجري هنا الآن بعد غيابه الذي دام عشرة أعوام، قلت له بلا انفعال: "إننا نعيش في زمن "كامب ديفيد" .. غاب عبد الناصر عن الذاكرة .. ليس هناك وجود حقيقي لنظرية القذافي العالمية التي أودعها في كتابه الأخضر .. لم يكن ذلك الابن من ذاك الأب .. الكل مشغول بلقمة العيش، وهناك من يشغلهم صنع الملايين من الدولارات.

لم يخف توفيق استعاضة من حديثي عن "القذافي"، لم يشأ أن يعلق. كان يعرف أنني لست من مريديه، كنا نجلس في محل "إيليت" في محطة الرمل، حيث جمعنا ذكريات الصبا والشباب. وكان معنا صابر فخري الذي كان يقوم بزيارة خاطفة لأبيه في الإسكندرية، ولم يعد يتعامل مع توفيق باعتباره الأستاذ السابق والمثل الأعلى، عاد توفيق يسأل بلهجة الذي اغترب طويلا عن مصر.

– كيف تسير الأمور في مصر الآن؟

قال صابر فخري بحس الكاتب الصحفي الذي يتبني رأيا خاصاً: هناك رجل فرد واحد يحكم مصر، بعد قصة المنصة، وما أدراك ما المنصة، ويطرح شعار "استراتيجية السلام والاستقرار والتنمية في ظل القطاع الخاص، وما أدراك ما القطاع الخاص، وديمقراطية ليس لها غير اسمها، وما أدراك ما الديمقراطية.

أخذ توفيق يحدد ثمار رحلة حياة خيالية من أية مكاسب تذكر، تقاعد العمل الذي وفر له معاشا مناسباً، وفوائد معقولة من مدخراته أثناء عمله بليبيا، لم يعد مدرسا، ولا مديرا لمكتب الشكاوي وليس له تلاميذ ولا مريدون، لم يعد هناك هدف يسعى لتحقيقه، حتى لو كان هدفا مثاليا، لم يملك وسائل إنجازه، ساءت علاقته بزوجته فطلقها تزوجت ابنته زيجة فاشلة، وأنجبت ابنا معاقا، حصل ابنه على الشهادة الجامعية في سن الأربعين، وفشل في الاستمرار في أي عمل بسبب مرض عصبي عضال، انقطعت صلته بمعظم أصدقائه الذين واصلوا حياتهم بدرجات متفاوتة من النجاح لم يبق له من صلات سوى أخيه وبقايا معارف، لا يفعلون شيئا أكثر من أنهم يأكلون ويشربون ويشكون من برود زوجاتهم وعقوق الأبناء وغلاء المعيشة وضعف الصحة، لم أكن قادرا على قطع علاقتي بتوفيق، كان يمثل لي الأب الحاني العطوف الذي أستطيع أن أقول له كل شيء يتعلق بحياتي الخاصة أو بعلمي في الجيش، دون أي خوف أو خشية من شرهة افتضاحي أو التعري أمامه، بدوت كأنما أكلم نفسي، وأنا أتحدث معه، لم يكن يمثل ضميرا تقليديا محافظا، يرفع عصا الأوامر والنواهي، قال لي ذات مرة:

فكر في أي شيء.. افعل أي شيء.. طالما أنك مقتنع ومتصالح مع نفسك، ولا تضر بالآخرين، ولا تجرح مشاعرهم.  
كان مشوار الحياة قد قارب نهايته وأنا أقول له:

- وماذا عن القضية والرسالة، والعمل العام من أجل تغيير الحياة للأفضل؟!

قال بلهجة قاطعة كأنما هي غير قابلة للجدل:

- علمنا حكاما أنهم يقومون بهذه المهمة، دون حاجة إلينا، ودون استشارة لنا.

لم يكن هناك أي دافع لمواصلة الجدل، قلت له مغيرا الموضوع:

- وما هي آخر أختيارك؟

- أبحث عن امرأة "صغيرة ساذجة" تشاركني ما تبقى لي من عمر.

استغرقت في الضحك وأنا أقول له:

- هل مازلت عندك حمية للمعاشرة؟

شرد قليلا، وقد استحضر معلومة فلسفية عندما قال من منطلق

ثقافته الفلسفية:

- يقول ديكارت: "أنا أفكر إذا أنا موجود".

لم أفهم العلاقة بين هذه المقولة وبين سؤالى، وعدت أستوضح:

- وما العلاقة بين هذه المقولة وسؤالى عن الجنس؟

- أنا أيضا لي مقولتي الفلسفية: "أنا أمارس الجنس إذا أنا موجود".

كانت لتوفيق تجربة طويلة مع الجنس.. ارتبط في صباه بقصة حب

ملتهبة مع بنت الجيران، دامت سنوات الدراسة الثانوية، ثم فترت هذه

العلاقة بشكل مفاجئ، ولم يعد يشعر نحو حبيبته بأية عاطفة.. ثم عرض

عليه أحد أقربائه الأثرياء الزواج من ابنته المطلقة، التي تملك شقة كبيرة

واسعة في المنطقة الراقية من حي "مخرم بك"، وهي كاملة التأثيث الفاخر، وقد أعفاه من تكاليف الزواج، قبل توفيق العرض بدون تردد، فلم يكن يملك تكاليف الزواج، ولم يتصور أن هذه الزوجة سوف تمثل قيда على حريته، اكتشف بعد الزواج أنها كانت تعاني من تخلف في قواها العقلية، وقصور في النضج الاجتماعي والعاطفي، واقتصرت العلاقة على سكن مشترك، يوفر حياة معيشية مناسبة، ويجتمع فيه مجلس الأصدقاء، ولم يكن هناك ما يمنعه من أن يفعل ما يحلو له. ارتبط بعد ذلك بعلاقة خاصة بأخت صديق له، واستمرت بدون زواج رغم معرفة أخيها بالعلاقة ثم انقطعت العلاقة بعد ظهور عريس لأخت صديقه، جمعه بعد ذلك علاقة حب مع زوجة مطلقة، كان يلتقيها في شقتها بالقاهرة، ويقضي معها أوقاتا سعيدة، وقال لي عنها ذات مرة إنها تتابع الحياة العامة بوعي قافي عال، وذلك يضاعف متعتي الجنسية معها، عجبت من نفسي يومها.

أيا عجب، فقد تعاملت معه في بداية علاقتنا باعتباره صاحب موقف وقضية، وإذا بي أجده أمامي شخصا آخر ثم انقطعت هذه العلاقة بعد أن أحت هذه الرفيقة في طلب الزواج، قلت لصديقنا المشترك فتحي عبد الرازق ذات مرة: "فليمارس الجنس كيفما يشاء، ولكن أين القضية؟! وعلق فتحي بلهجة ساخرة: "هو أيضا يلعب الورق كيفما يشاء، ولكن أين القضية.. ومع ذلك أنا مدين له بأستاذيته الأبوية أيام الصبا.

جمعته بعد ذلك علاقة خاصة مع زوجة أحد أصدقائه، وعندما انكشفت العلاقة طلقها زوجها، وتزوجها توفيق بعقد عرفي، ولم أفهم سر استمرار صداقته لزوجها الصديق.

ولم يبح لي بسر استمرار هذه الصداقة. ثم جمعته بعد ذلك علاقة خاصة مع أخت زوجته العريف هذه ولا أعرف كيف وفق بين الأختين في علاقة مشتركة.

ارتبط بعد ذلك بعلاقة خاصة مع رفيقة لأحد أصدقائه، كان قد تجاوز السبعين عاما، وكانت هي في الثلاثينيات، فتاة عملية متحررة، تبحث عن المال من أي مصدر أو جهة، وهو يبحث عن الجنس بأي ثمن، وطلبت منه أن يدفع ثمن نصف شقة، تمتلكها باسمها ويتقابلان فيها، وافق على العرض ودفع نصف مدخراته، استمرت العلاقة بضعة شهور ثم اختفت من حياته. لم أعد ألتقي بتوفيق كثيرا، انشغلت بنشاطي الأدبي والصحفي، ولم يعد بيننا ما يمكن أن نتشارك فيه، أو نتناقش حوله، كان قد تجاوز الخامسة والسبعين عاما، ولم تعد هناك قضايا وطنية أو قومية، اللهم إلا قضية توريث الحكم باسم الديمقراطية، قال عنها البعض إنها مسرحية هزلية، استأجر توفيق شقة صغيرة متواضعة في حي "البيطاش" بالعجمي، وأقام فيها وحيدا انحسر نشاطه الاجتماعي في مكالمات قليلة، عبر "الموبايل"، مع بعض أقاربه ومعارفه القليلين، حرص على تركيب "دش: ليوهم نفسه بأنه على صلة بالعالم، عبر القنوات الفضائية.

أصبحت أزوره من باب المساندة وجبر الخاطر، لاحظت أنه يقلب القنوات الفضائية بسرعة عالية، ولا يتوقف عند برنامج بعينه إلا قليلا، فإذا ما توقف عند برنامج ثقافي أو علمي تأخذه سنة من النوم.

لاحظت أيضا أنه لا يبدو مكتئبا أو حزينا أو يعاني من مشكلة، كان يحرص على الحديث في مسائل سياسية واجتماعية بحماس منقكع النظر، يوهم صاحبه بأنه صاحب موقف وقضية، حلى لي ذات مرة أن أشاغبه على سبيل المؤانسة والرياضة العقلية ومن باب القلق الوجودي الذي تحدثنا فيه كثيرا من قبل، سألته بصراحة تعودنا عليها.

– هل تعتقد أن العمر قد طال بك أكثر من اللازم؟  
انتفض في مجلسه، وضع ساقا نحيفة علي الساق الأخرى، لقال بثقة ويقين:

– ما زلت صغيرا.. صغيرا جدا.. أنوي بلوغ المائة عام.. وربما أكثر من ذلك الحياة جميلة ورائعة..

يلزم أن تعاش بكل الشبق والنهم.

– حتى ولو كانت بلا معنى!؟

– المعاني أو هام لا تصلح لغير الزينة.. زهور تقدم في المناسبات وسرعان ما تذبذب.

عاد يقول وكأنما يقدم لي نصيحة غالية:

– لا تجعل المعاني تفسد عليك حياتك.. تعامل معها في حدود وظيفتها الترفيحية:

- ألا ترى أنك ضحية مجتمع فاسد؟  
- هل قرأت في التاريخ عن مجتمع خلا من الفساد.. أعتقد أنك سمعت  
عن قتل الأنبياء، وعن قيام  
كل زعيم بتصفية شركائه في النضال.  
عاد يقول بلهجة الحكيم العارف:

خذها مني نصيحة.. ما زال أمامك بعض الوقت.. الحياة بلا معنى  
ومع ذلك يلزم أن تعاش.. إذا خيرت أن أبدأ الحياة من جديد لاخترت  
ذلك بمنتهى الرضا والسعادة.

- هل تعتقد أنك ضحية نشأة وتكون وظروف عائلية مرتبطة وقاسية؟  
- لا يصح أن تقول ذلك لدارس الفلسفة.. ألقيت بكل الموروث  
والمسلمات على قارعة طريقي.. أصدرت حكم الإعدام على الأنا الأعلى،  
وخلقت ذاتي بذاتي.. عندما أموت سوف تلعو شفقي مشروع ابتسامة،  
تغري الأحياء بهجر الأوهام.

أدركت أخيرا أن توفيق مختار لم يكن صاحب موقف وقضية وإنما كان  
صاحب وجهة نظر يشكل ما تتأمل حقيقة الوجود الإنساني، انقطعت عنه  
فترة طويلة بسبب مشاغل عديدة، إلى أن فوجئت بأخيه يتصل بي ويقول:  
"البقية في حياتك.. توفيق مات".

ألجمتني الدهشة وأصابني الدهول، رسب في روعي أن توفيق مختار  
من النوع الذي لا يموت، لم تكن له صفات الأحياء الذين يجمعون بين

الحياة والموت، تصورته كائنا أبدأ ميتا، أو كائنا أبدأ حيا، ليس هنا فرق بين موته وحياته، لم أعرف كيف أحزن عليه.. كيف ولماذا أبكي! أبلغني أخوه أنهم اكتشفوا موته في شقته بعد سبعة أيام، كانت صلته تماما بكل من عرفهم وعرفوه، لم يترك وراءه ورقة ولا قلما ولا كتابا، لم يترك سوى بعض المأكولات في الثلاجة، وزجاجات بيرة فارغة، وفنجان لم يزل عالقا به بقايا قهوة.. وغيارات داخلية تحتاج إلى غسيل، ومبسم سجائر، وموبيل، وتليفزيون يستقبل قناة فضائية لا يشاهدها أحد. سنحت لي الفرصة أن ألتقي في شادر العزاء ببعض تلاميذ توفيق القدامي الذي أصبحوا ملء السمع والبصر، التقيت صابر فخري، وفتحي عبد الرازق، وموريس شاكر.

كنا في حاجة لحديث يسترجع ذكريات تستحق المراجعة والتأمل في ظل جبروت الموت. انشغلنا، بعوفية بالغة، بإعادة قراءة توفيق مختار الذي اختلفت آراؤنا حوله وهو حي، ما بين لائم وعاتب، ومحب ومتعاطف، قال فتحي عبد الرازق من منطلق حيادي، قدر ما استطاع: "لم يكن قانعا في أعماقه باستغراق الوظيفة والأسرة لحيويته، ويشعر في زاوية من نفسي بأنه يجب أن يكون مسئولا عما يجري حوله، ويجزئه أنه عاجز عن القيام بأي دور، لأسباب لم يشأ أن يواجهها، ويمكن أن نعتبر اهتمامه الخاص برغبات ملحة - مثل الجنس - والبوكر - نوعا من الهروب من قصور في قدراته، وهو يمارس تعاسة خفية دون وعي، تحت غطاء ثقة بالنفس غير مبررو".

ساد الصمت بعض الوقت دق جرس المنزل دخل "صادق سلماوى" بمشيته الزاحفه وكرشه الضخم الممدود - وملابسه المهتدلة، لم يتوقف عن إطلاق تعليقاته الشعبية الساخرة، وهو يتقدم نحو مقعده في وسط الجلسة بعشم يخلو من التكلف، ويقول بلهجة تقديرية وهو يلهث: "البقية في حياتكم، وكأن ما جرى "تحصيل حاصل" .. أخذ يتنقل من خاطرة إلى أخرى دون تركيز أو دلالات، تلك هي شخصيته "صادق سلماوى" مدرس العلوم الاجتماعية التقليدى الذي فقد مدخراته من الدروس الخصوصية في شركات توظيف الأموال. لم يكن محبا لتوفيق وهو شخص عادي ومتدين روتيني، ويأخذ على توفيق أنه يسرق زوجات وأخوات أصدقائه، وفجأة قال بلا مقدمات: "لا تؤاخذوني.. لي رأي خاص في توفيق مختار والأجر على الله. "هو ذلك المظلوم المتوحش، الذي لا يجب أحدا، بل يجهل تماما ماهية الحب، ولا يجيد سوي اللامبالاه تجاه غيره، وتجاه ما يفعله هو بنفسه".

ألجمنا الصمت بعض الوقت، في أخذ صادق يدخن سيجارة من سيجارة، ويرتشف كوب الشاي بعجلة، وينتظر رد فعل كلامه، إلى قال موريس شاكر بتردد: "أعتقد أن شخصية توفيق يكتنفها الغموض والحيرة.. من الصعب الفصل فيما إذا كان افتقاده للهدف هو الذي أدي به إلى التحل من أي التزام، أم أن التحلل هو الذي ضيع منه الهدف".

وجاء دور صابر فخري ليدي بدلوه بعد أن سمع ما قيل واسترجع معانيه، فقال: "أنتصور أن توفيق كان يتصف بثلاثية عجيبة.. وجد ملاذه

في الجنس والبوكر والمطلق.. لم يكن يعي التناقض الذي يعيشه.. كان يتطلع إلى المستحيل بلا منهج ولا جهد حقيقي، كأن المطلق الفكري ما هو إلا مبرر للشبق الجنسي ووهم التعامل مع الأزمات بتداول أوراق اللعب.. كان ذا مظهر براق بالثقافة وباطن أجوف متداع تفوح منه التعاسة".

لم أشأ أن أشارك في هذه المباراة الوصفية للراحل توفيق مختار، رغبت أن أراعي حرمة الموت، وصحبة انتصارات وانكسارات عديدة، ومع ذلك لم أفلت من ملاحقة "صادق سلماوي" بجراته المقتحمة، وهو يصصر على إبداء رأيي، قلت باقضاب: "لقد خص تلاميذه وأصدقائه الحميمون بأيسر ما عنده قدر ما استطاع.. زرع فيكم حرية التعبير ومراجعة الموروث والرغبة في إثبات الذات، فلم يفشل منكم واحد.. لم يبق منه إلا مأساة وتلاميذ ناجحون".

أراد صادق أن يمارس هوايته في التندر والممازحة، القرب من أذني ووشوشني: "ليتك تسمح لنا بالالتفاف حول مائدة السفرة" لنلعب الورق.. ساعتان "بوكر" فقط.. قلت له وأنا أتحكم في ابتسامه مكتومة: "يبدو أنك سوف تطل علينا ذات يوم من شرفة اللا معقول".



## عبد الغني سلام

كلما رأيت ابني "أكرم" يقود سيارتي في شوارع الإسكندرية، وأنا جالس بجواره، تذكرت الرقيب عبد الغني سلام، سائق سيارتي الجيب "سيارة قائد الوحدة"، في الفترة ما بين عامه 1970-1974، عندما كنت أوصل خدمتي بالجبهة على الضفة الغربية للقناة.

كان عبد الغني يتمتع ببنية قوية ومظهر جاد وانضباط تام وقلة الثثرة، ويحتفظ بالمسافة المطلوبة بين القائد والمقود، ولا يستغل وضعه كسائق لسيارة القائد، اتصفت تصرفاته بالبساطة والعفوية والصراحة التي لا تخلو أحيانا من سذاجة، والتي تكشف عن طباعه الريفية، كان ابن قرية بالدقهلية، تنحصر خبراته في حدود حياة "ريفية بسيطة ومحدودة"، قدم ذات مرة وهو عائد من إجازته فطيرة "مشلتت" وهو في غاية الخجل والحرص، وعندما ترددت في قبول هديته قال لي إنه مستعد لتقاضي ثمنها، مخافة أن أصفه بالنفاق والمداهنة.. وعندما اصطحبت ابني "أكرم" معي إلى الجبهة، ولم يكن قد تجاوز السادسة من عمره، ليقتني معي يومين، يخففان من لوعة افتقاده في، تولى عبد الغني صحبته ورعايته له وتدريبه على قيادة السيارة "الجيب"، بناءا علي طلب "أكرم" وقد تولدت بينهما صحبة لطيفة انتقلت للخدمة بالإسكندرية بعد تحطيم خط بارليف وفك الارتباط الأول، طلب مني عبد الغني أن اصحبه معي إلى وحدتي الجديدة، لم أتردد

في قبول طلبه، كانت أول مرة يعيش عبد الغني في مدينة صاحبة، بل في عاصمة القطر الثانية. واصل تدريب أكرم على قيادة السيارات، حتى أنه حصل على رخصة قيادة فيما بعد بسهولة ومن أول امتحان تضاعفت خبرات عبد الغني، ونمت قدراته على حمل العيش في مدينة لاتنام. درب نفسه على إصلاح السيارات، أصبح ميكانيكي سيارات، يتم الرجوع إليه في الأعطال الصعبة المعقدة.. نجح في شبكة علاقات، تشي بمستقبل واعد في هذا المجال، انتهت خدمتي بالجيش، ولم تنقطع صلتني بالرفيق عبد الغني الذي ترقى إلى رتبة الرقيب أول حرص على زيارتي من وقت لآخر، ذكرني بفضل نقلي له للخدمة بالإسكندرية، وما جناه من فوائد.. حرص على تقديم أي خدمة ممكنة لي، كان يصلح لي سيارتي الخاصة كلما أصابها عطل. فهتمت منه أنه لم يعد يذهب إلى قريته إلا في القليل النادر.

انقطعت صلتني به عدة سنوات، أدركت أنه انشغل بحياته الجديدة، وربما أصبحت له أعمال، كنت أقود سيارتي ذات يوم في طريق الحرية "شارع أبوقير" حتى لاحظت "لوري" يضيق عليّ الخناق، ويضطريني في النهاية إلى التوقف، نزلت من السيارة وقررت الشاكر مع سائق اللوري المستفز. وجدت نفسي وجها لوجه أمام عبد الغني سلام. تبادلنا الأحضان والسلامات. قال إنه عرفني واضطرت لإيقاف سيارتي ليسلم عليّ، أصر على دعوتي لتناول الشاي في كازينو "حليم". أيقنت أنه أصبح ميسورا. جلسنا بالقرب من شرفة مطلة على البحر. عبد الغني يتأمل البحر الذي لم يعد غريبا عليه. تبدو عليه علامات الثقة والعز. القميص مشجر وأنيق وثمان. أصبح يفرق شعره ويطليل الذابوتين. لم أنتظر طويلا. حان وقت

السؤال. قلت بلطف ومودة: "واضح أنك هجرت "الكاكي" .. الأوفرول والبيرية والجزمة "البيادة".

قال ببساطة: منذ عام.. لم أجدد الخدمة.. وجدت ما يضاعف دخلي عدة مرات". قلت بشغف وفضول: "أشتاف لسماع القصة".  
قال بثقة يبين منها إعجابه بنفسه وتتم عن تجربة ناجحة.

اشتريت اللوري الذي أوقفته به منذ قليل من سوق "الخردة".. استغرقت ستة أشهر حتى أعيدته إلى الحياة.. تذكر أنني سائق وميكانيكي وأحيانا أتاخر في قطع الغيار.. قمت بتشغيل اللوري بالليل والنهار.. حققت مدخرات لا بأس بها.. أصبحت لي علاقات ترتبط بامهنة.. أمامي مشروعات كثيرة تنتظرنى.

عاد يسألني بأدب واحترام لم يكن قد تخلى عنه.

- وما أخبار سيادتك؟

- نشاط أدي وصحفي بعد التقاعد.

عاد يقول بتحرج:

- لا أعتقد أن مثل هذا العمل يأتي بهممه.

- قلت على سبيل المداعبة والتفكه هل عندك عمل يضاعف دخلي؟

قال بلا تردد:

صدقني يا فندم.. توكيل سيارات يجعلنا نعيش فوق السحب. نحن

في زمن الانفتاح.. المهم أن

تتعرف سيادتك على من يمنحنا التوكيل ويوفر معرض السيارات.

قلت له بظرف:

- أشتاق إلى فطيرة "مشلت" من قربتك بالدقهلية.

قال وهو يضحك بإيقاع ريفي:

كان زمان يا فندم.. اسمح لي أن أقدم لك "تورته" من محل لاب..

لاب..

عاد يقول بحرج:

لا أعرف كيف أنطق اسمه.

"لابوار". آه.. آه "لابوار".. أحتاج بعض الوقت حتى أنطق اسمه.

أدركت أن عبد الغني الذي كنت أعرفه، لم يكن عبد الغني الذي أمامي. قط مشوارا لا بأس به للتكيف مع حياة المدينة، لم يكن ذلك القروي النازح الذي يتاجر في الفاكهة أو الخضروات أو الملابس الصينية، لا أذكر كم مر من الوقت عندما كنت مجتمعا مع بعض أصدقائي من الكتاب في كافيريا "قصر الشوق" المطلة على البحر، ودخل عبد الغني سلام بقامته الفارعة وثقته المتزايدة في نفسه، ويرتدي بنطلون "جينز" وحذاء "كوتشي"، ومنعه بعض أصدقائه، قولت إنهم زملاء مهنة، حيائي وحيا أصدقائي، وأقسم أن يدفع حساب مائتي وعندما هممت بالانصراف طلب من أن نتمشى قليلا علي الكورنيش استجبت لطلبه لأشبع فضولي في معرفة أخباره، عرضت أمه عليه الزواج من ابنة خاله، ورفض العرض بحجج أن تغيرت حياته وعاداته وطريقة تفكيره، وتزوج من فتاة "سكندرية" صارخة "الأنوثة" والجمال وتعرق كيف تسيل لعابه، ثم تبين له أنها استنزفت

الكثير من مدخراته في المأكول والمشرب والكثير من الملابس والفسح والسهرات، ثم اكتشف بعد ذلك أنها فتاة لغوب، وشك في تصرفاتها أننا غيابه الطويل في عمله خلال النهار والليل، وعندما اكتشف انحرافها طلقها طلاقاً بائناً إلى غير رجعة. أظن أنه قد مر عام تقريباً، عندما زارني عبد الغني في منزلي، وفرح كثيراً للرؤية ابني أكرم الذي كان يعرف أنه خريج كلية "الهندسة" قسم ميكانيكا.. دار بينهما حديث طويل، عرض عليه عبد الغني في نهايته إنشاء ورشة لإصلاح سيارات بمواصفات حديثة، ويمكنه الاستفادة "بجبراته وصلاته، صارحني عبدالغني بأنه قد تخلص من توابع أزمة زواجه الفاشل، وأنه قرر أن يتزوج من ابنة عمه القروية، وقد طمأن أباهما بأنه مل ينجب من زوجته السابقة، لأنها كانت ترفض الإنجاب، لتستقل من زوج لآخر دون نعوقات أو عقبات، وعندما سألته: ألم تتحر عنها قبل زواجك منها؟ قال بصراحة تخلو من تحفظ: "وقعت فريسة كبت جنسي طويل، ولم تكن لي خبرة كافية بالنساء.. كانت جريئة، وقد فعلت معي ما لم يخطر على بالي.. كانت تناديني وهي تضحك ضحكة فاجرة تعال يا مراهق، عرفت سبب زيارته عندما دعاني لحضور حفل زفافه على ابنة عمه، لم أتردد لحظة في قبول الدعوة تعرفت في الحقل الذي أقيم في بيت أسرته في القرية، على زوجته الريفية البسيطة، عرفني بها باعتباري قائده في حرت أكتوبر، وأنا اشتركنا سوياً في تحرير سيناء من الغاصب المحتل، علمت فيما بعد أنه باع اللوري الذي كان سبب عزه، واشترى "ميكروباص" جديد على الزيرو، وأنه يعمل ليل نهار لتسديد القسط الشهري، ثم خانت له فرصة لمشاركة زميل له في حيازة ورشة إصلاح

سيارات، وعندما لقيته ذات مرة في موقف سيارات الميكروباص بسيدي بشر قال لي أثناء الحديث بتفاؤل جامع: "لم يعد الميكروباص يناسبني.. أحلم بسيارة "ليموزين" أنقل بها السياح ما بين القاهرة والإسكندرية والأقصر".

ومع بداية التسعينات كان التوتر الديني بين عنصري الأمة قد زاد واستفحل أمره، إلى حد تسميته بالفتنة الطائفية من بعض الجهات، كنت أتابع هذا التوتر، وما ترتب عليه من تحرشات وتشابكات، باهتمام بالغ، عندما زارتني زوجة عبدالغني سلام بشكل مفاجئ وعلى غير توقع سألتني ما إذا كنا أعرف شيئا عن زوجها، قلت لها إنني لم أره منذ فترة طويلة، قالت إنه لم يعد إلى البيت منذ أسبوع.. منذ حدثت الاشتباكات الدامية بين المسلمين والمسيحيين أمام الكنيسة المرقسية بحي محرم بك، لم أعرف أن عبدالغني له أي صلة بمثل هذه التشابكات، ذهبت إلى أكثر من قسم شركة لأعرف أي شيء عن مصير عبدالغني ولم أفرز بطائل، اضطررت للذهاب إلى مديرية الأمن فأمهلني المسئول عدة أيام، قال لي المسئول بعد ذلك إنه تم القبض على كل المتواجدين في منطقة الشجار أما الكنيسة المرقسية، وربما يكون عبدالغني واحدا منهم، وليس بالضرورة أن يكون مشاركا أو متهما، لم أتوقف لحظة عن متابعة أخبار عبدالغني، حتى علمت أنه تم القبض عليه في هذا الحادث وهو رهن الاعتقال والتحقيق وطلبت زيارته في السجن، فقبل لي إن الزيارات ممنوعة، ثم إنه غير معروف في أي سجن من مسجون، أخذت أتابع مما ينشر حول هذا الموضوع فلم أفر بما يشير إلى أسماء المعتقلين والتهم الموجهة إليهم. توجهت إلى مسئول صديق

أسأله عن جرمه فقالي لي بصراحة: "تذكر أن مثل هذه الاعتقالات تتم بموجب قانون الطوارئ، وإنه بموجب هذا القانون لا يتم الإعلان عن التهم ونتائج التحقيقات"، ظلت سنوات طويلة لا أعرف شيئاً عن مصير عبد الغني سلام، إلى أن زارني ذات يوم شريك عبدالغني في ورشة السيارات، لأبحث له عن مشتر للورشة يدفع ثمننا مناسبا، سألته عما إذا كان يعرف شيئاً عن أخبار عبدالغني، قال: "كل ما أعرفه أنه توقف بسيارته عند الكنيسة المرقسية" بسبب تعذر المرور، وتم القبض عليه ولم أره منذ هذا اليوم" وعندما سألته: "كيف عرفت ذلك؟" قال: "من زميل لنا كان بصحبة عبدالغني ونجح في الهروب بأعجوبة" قلت بذهول: نهاية عبثية، سألني ماذا أقصد، قلت بسخرية واستخفاف: "كلام كتاب ومثقفين".



## صبري واكد

تعرفت على الرائد "صبرة واكد"، قبل حرب أكتوبر بعام تقريبا، عندما قدم لي نفسه، ليستلم مهام رئيس عمليات الوحدة التي أقودها، والتي تتولى مهمة الدفاع عن قيادة الجيش الثالث في منطقة "عوبيد" غرب مدينة السويس، وجمعتني به في البداية علاقة عمل، كشفت عن مدى كفاءته ودرايته بقواعد الحرب وفنون القتال وصفات قيادية متميزة، وما لبثت أن تطورت علاقتي به إلى صداقة حميمة، لم تنقطع، رغم فارق السن والرتبة، كان يتمتع بكفاءة مهنية عالية، وذكاء اجتماعي ملحوظ، ويتابع ويلم بكل ما يجره حوله في المجتمعين العسكرية المدني على السواء، كان يعبر عن آرائه بتلميحات خاطفة، تنم عن وعي وإدراك، ولا توقعه في المخطور، ولا تصل به إلى حد الغضب أو الاحتجاج الذي لم يكن واردا في حياتنا.

كنا نقضي أوقات الراحة في لعب "الشطرنج" أو "الدومينو" وتبادل الحديث عن تجاربنا المشتركة، فيحدثني عما مر به أثناء الانسحاب من سيناء بعد العدوان الثلاثي، وعن ظروف خدمته بسوريا أثناء الوحدة، وعما جرى له أثناء الانسحاب الثاني من سيناء بعد حرب 67، وعن حرب القبائل التي خاضها الجيش المصري في اليمن، وسألني ذات ليلة، ونحن في ملجأ إقامتي تحت الأرض، المحكم الإغلاق: "هل نحن على صواب

أم أن مصر تتحمل ما هو فوق طاقتها؟" لم يكن الوقت مناسباً للبحث عن إجابة لهذا السؤال، ومواسير مدافع العدو ترتبص بنا وتطل علينا من مزاجل دشمن خط بارليف، ثم إن هذا البحث لا يدخل في اختصاصنا، قلت لصبري باقتضاب لا يغييل عنه مغزاه: "دعنا نبحث عن الإجابة بعد تحرير سيناء، وربما بعد أن نعتزل الخدمة ونصبح أحرارا".

قال صبري بذكائه اللامع وانضباطه الواعي:

- مع سيادتك الحق.. لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

عدت أقول له بانفعال حار، وأنا أنقل "الطابية" فوق رقعة "الشطرنج" إلى مربع حساس: جيلنا كان على موعد مع القدر.. تحملنا الكثير من الجروح والمرارات لا تخلو من انتصارات مبهرة.

عاد صبري يتقول بلهجة تمزج بين البوح والولاء:

- إنها ليست ساعة للحزن، بقدر ما هي ساعة للعمل.

أصبحت علاقتي بصبري علاقة عمل وصدافة وصحبة ميدان قتال، ثم صحبة مدينة فيما بعد، كثيرا ما كان يستدرجنا الحديث إلى دنيا الشئون العائلية، علمت منه أن ابنته الكبرى مصابة بشلل في ساقها اليمن منذ طفولتها، وأنها في حاجة لعلاج بالخارج، وهو لا يملك تكاليف هذا العلاج، وزوجته تعاني من تحمل مسؤولية تربية بنتين وولد وحدها، وهو غائب عن أسرته. منذ شهر العسل، يتنقل بين شتى ميادين القتال قال لي ذات مرة: "زوجاتنا تقمن بمهمة تربية أبنائنا، ونحن ضيوف عليهن خمسة أيام من كل شهر".

كان يتحدث عن وجيعة مشتركة، قلت له على سبيل تبادل الهموم والمتاعب:

ابني أكرم اشترى لعبة سماها "لعبة الحرب" .. جيشان متقابلان يضمن مدافع ودبابات وطائرات وعساكر، يدير المعركة بينهما بأصابعه، ويحاكي بصوته أصوات الطائرات والمدافع والدبابات. ولا يتوقف عن إدارة المعركة إلا بعد أن يناله التعب والإرهاك، فيخلد إلى النوم طويلا.. وعندما يستيقظ يسأل عني فلا يجديني، فتمتد أصابعه إلى اللعبة، ويعيد إشعال نار القتال. تأثر صبري بالحكاية قال باشفاق:

لعبة شطرنج حديثة.. لعبة قتال خالية من مهارات العقل.  
ربما تكون أيضا لعبة تفريج عن المكبوت.

صارحني صبري ذات ليلة بأنه سعيد بالعمل معي، ولم يتوقع أن نصبح أصدقاء بلا تحفظات، حكى لي أن توقع أنه يشي به قائد وحدته السابقة التي انتقل منها ليعمل معي في وحدتي. حدثني فعلا قائد وحدته السابقة وشكى لي من تبرمه المستمر، وضيقه من حالة اللاسلم واللاحرب. وانتقاده لأوضاع كثيرة، تعاملت مع صبري دون تأثر برأي مسبق، أدهشتني كفاءته وانضباطه وحسن قيادته لمؤسسه، كنت أدرك أن ما يشكو منه وينتقده، هو نفس ما يشكو منه كثيرون، والفرق هو أنه يفصح عن شكواه، بينما لا يفصح الآخرون. وهكذا سمحت له بدرجة من حرية تعبير منضبطه، داخل مقر إقامة تحت الأرض وموصد الأبواب. تعجب قائده من إمكانياته المتميزة. لم أنس ما قاله في صبري ذات ليلة شديدة الإظلام: "لا

مفر من أن تتغير حياتنا بشكل ما، بعد تحرير سيناء"، أردت أن أهدئ خاطره فقلت: "التغير هو طبيعة الحياة وإحدى صفات الشعوب الحية".

وجاء ذلك اليوم الحاسم الذي جمعني بصبري وأكد، في مركز القيادة الأمامي، فوق قمة جبل عتاقة، عندما صدرت لي التعليمات بالانتقال إليه، صباح السادس من أكتوبر 1973، قلت لصبري بلهجة متفائلة: "أنت تحلم بالتغيير.. هناك شيء يتغير في حياتنا الآن"، قال صبري بعشم في ديمقراطيي وبجموح متهور: "العبور بداية تغير.. نحن ننتظر الغير الأكبر"، قلت له بمزيد من الإعجاب والاشفاق وأنا أستغرق في الضحك: "ربما أزورك يوما ما في سجن طره". دقت ساعة الحرب، حققت الضربة الجوية أهدافها، حلت الساعة الثانية وخمس دقائق. عبر الجيش المصري قناة السويس، تم تحطيم خط بارليف، واصلت القوات المصرية زحفها شرق القناة تساقطت طائرات العدو بلا انقطاع، نجحت القوات العابرة في صد الهجمات المضادة توالى المعارك بنجاح كبير، بدأ أن الحلم قد تحقق على أرض الواقع، قلت لصبري إننا في طريقنا إلى "المضايق" عند العريش، قال إنه لا يقبل بأقل من الوصول إلى الحدود الدولية. مرت أيام مجيدة قبل حدوث الثغرة عند "الدفرسوار" عبرت وحدات إسرائيلية ناحية الغرب، اتجهت نحو السويس. فشلت فشلا ذريعا في الاستيلاء على المدينة، لم تستطع الصدمة أن تبدد أفراس النجاح، مرت الأيام بطيئة متناقلة، حتى حل يوم 22 أكتوبر 73. كانت الثانية عشرة ظهرا، عندما دق جرس التليفون الميداني سمعت صوت قائدي عبر السلم الممدود فوق الرمال والصخور والأخاديد والخنادق، يقول بلهجة "مقتضبة": تم وقف إطلاق

النار رمقني صبري ينظرة قلقة مستطلعة، أخبرته بنص اليبلاغ، نظر طويلًا ناحية مدينة السويس المحاصرة بدبابات العو، قال بصراحتة المعهودة التي لا تخلو من جنع: "هل كانت حرب تحرير أم حرب تحريك لوضع تجمد قرابة ستة أعوام؟!"

لم أكن قد تخلّيت بعد عن شريط الحبوب المهذئة "فالينيل" الراقد في جيب "الأوفروول" خلعت حذائي لأول مرة منذ بدء الحرب شممت رائحة العفن المتصاعدة من قدمي المتورمتين، سجلت البالغ في دفتر "يوميات الحرب" بيد مرتعشة وإحساس ضبابي غامض، قلت لصبري في لحظة استشراق لمستقبل غامض: "يبدو أننا نعيش في لحظة فارقة بين زمان مضي وزمن قادم"، رمقني صبري بنظرة حائرة، تكشف عن شكوك طالما راودته، ولم يبح بها لأحد اعترف بأني وقعت فريسة حسابات متضاربة للموقف، لا تؤدي إلى استجلاء واضح لحقيقة ما جرى وكان قد كسرت رهبة الصمت، وأنا أهرش قدمي ثم رأسي وقلت لصبري بإحباط: حان الآن موعد الهبوط من قمة "عتاقة"، قال بلهجة تعكس ما ترسب في قلبه: "ربما نضطر لصعود هذا الجبل مرة أخرى ذات يوم سيقدر مصير عفود كثيرة قادمة"، لم أشأ أن أعلق على قوله الآن، عاد يرهقني بنظراته الفضولية النهمّة، التي تطلب مني أن أقول شيئًا.. شيئًا ما.. نحن نجمع حاجتنا استعدادًا للهبوط، قلت له بلغة محايدة، قدر ما استطعت: "ربما هو يوم يفصل بين تحديات، كانت لها أرباحها وضرائبها، وبين نداء سلام، تتخلله بالضرورة تحديات من نوع آخر، وامتحان صعب للإرادات"، هبطنا منحدر الجبل بحرص وحذر.

صلاية الصخور لم تسمح لنا بصنع سلم للصعود والهبوط، انتقلنا من مركز القيادة الأمامية عند القمة إلى مركز القيادة الخلفي عند القاعدة. تم فك الارتباط الأول على خط النار، ثم تبعه فك الارتباط الثاني، ثم استقرت الأوضاع على خط التماس بين الجيشين، وسمعنا من قال إن هذه الحرب سوف تكون آخر الحروب، وتوسطت لصبري لدى قائد الجيش، ليرسل ابنته المصابة بالشلل، للعلاج بالخارج، على نفقة القوات المسلحة، واستجاب لطلبي، طلبت منه أن أعمل بالإسكندرية، حتى أكون قريبا من أسرتي، بعد غياب دام سبع سنوات، طالما أن هذه الحرب هي آخر الحروب، واستجاب لطلبي مشكورا، انقطعت صلتى بصبري عدة سنوات، إلى أن زارني بمنزلي بالإسكندرية، بعد فض مظاهرات الطعام يوم 19 يناير 1977، علمت منه أنه شارك بوحده في فض مظاهرات الطعام في القاهرة بطريقة سلمية هادئة، علمت منع أيضا أن ابنته عادت من الخارج، بعد أن شفيب من مرضها بدرجة معقولة، لم يمض وقت طويل حتى علمت أنه قد أحيل إلى التقاعد، وأنه سعيد بذلك، لأنه ينوي أن يقاتل في جبهة جديدة في ساحة العمل الوطني.

كنت قد أحلت إلى التقاعد قبله بسنوات، والتحققت بكلية الآداب لأحظى بالتأهيل المطلوب لمهنة "القلم والكتابة"، وأصبحت عضوا باتحاد الكتاب، بعد أن أصدرت رواية عن حرب يونيو 67، وحازت القبول والانتشار، أصبحت عضوا دائما في الندوة الصيفية لتوفيق الحكيم

ونجيب محفوظ بإسكندرية، وبدأت أكتب بعض المقالات في الصحف والمجلات.

كان صبري وأكد قد اتخذ منحى آخر، بعد أن تحولت المنابر الوطنية إلى أحزاب سياسية، أبلغني في إحدى زيارته أنه انضم إلى حزب "التجمع الوطني الوحدوي الاشتراكي"، الذي يمثل يسار الوسط، أخذت أتابع نشاطه، ولا حظت أنه أصبح عضوا بارزا في الحزب، ومعارضاً شرساً للتطبيع والتيار الديني الصاعد، وسرعان ما تصاعدت معارضة حزبه بلا تحفظات، بعد رحلة "السادات" للقدس، وتوقيع اتفاقية "كامب ديفيد" .. واصل صبري نشاطه الحزبي المقاوم للتطبيع بلا توقف أو هوادة، إلى أن قبض عليه في حملة اعتقالات سبتمبر 81، وأدع السجن مع غيره من رموز المعارضة، لم يسمح لي بزيارته في السجن، لم أراه إلا بعد حادث "المنصة" في أكتوبر 81، بعد أن تم الإفراج عن المعتقلين، لم تكن قد خمدت فيه بعد أنفاس المقاومة والاحتجاج، بدا مشغولاً بالغد، أكثر من انشغاله بما وقع. سألتته بنبرة استقراء لأفكاره: "وماذا بعد؟" قال بهدوء حائر: "لا مفر من مرور فترة ترقب وانتظار".

مرت سنوات ثقيلة متباطئة، لا يحدث فيها شيء ذو بال، ولا تتوقف الصحف الرسمية عن التذكير بشعار الوضع القائم: "استراتيجية السلام والاستقرار".

علمت أن صبري يعاني من مرض عضال في قلبه، يحتاج لعلاج بالخارج. ولا يملك بالطبع تكاليف العلاج، ولم يكن هناك من أتوسط عنده لعلاج بالخارج، سألته وهو راقد في سريره، يلتقط أنفاسه بصعوبة.

- ما أخبار حزب التجمع؟

استغرق في ضحكة هسيبية تكاد يتوقف لها قلبه.

- أصبح حزبا ورقيا، يصدر صحيفة، تقرأها قلة تبقت من زمن تولى.

## زكي الدفراوي

بدأت علاقتي بالدكتور زكي الدفراوي عندما انتسبت لكلية الآداب قسم اللغة العربية، بعد إحالتي للتقاعد عام 1977، وكان سني 42 عاماً، كان أحد أعلامي، منذ حصولي على الثانوية العامة، أن أحتل مقعداً في مدرج بالجامعة، خطوات خطواتي الأولى نحو المدرج مع بداية المحاضرة الأولى من اليوم الأول للعام الدراسي الأول.

كان المحاضر هو الدكتور زكي الدفراوي، رجل فارع الطول، رشيقي القوام، يميل لونه لسمرة محبب، له رأس كبير، يعلوه شعر قصير ينحسر عن جبهة عريضة، وملامح وجهه متناسقة النسب والأبعاد، تصفي عليه الكثير من المهابة والرهبة، وإعجاب غامض، كأنك أمام لوحة مبهرة تدعوك إلى التأمل والغوص في الأعماق، فهمت أنه أستاذ مادة "الشعر الجاهلي" عندما بدأ يحدثنا عن "معلقة" لبيد بن أبي ربيعة، تواصل حديثه ساعتين، دون أن يسمع همس أو حفيف، كأننا مخدرون أو غائبون في عالم آخر، ومسلوبو الإرادة بالتأكيد، لم نكن نشعر بأي غربة عن عصر بدوي قديم هو "العصر الجاهلي" قبل الإسلام، كان يغوص في أعماق النفس الإنسانية التي تعكس كل العصور.

أصبحت أتلهف شوقاً إلى محاضراته، رأيت فيه مثلي الأعلى الثقافي،  
تمنيت أن تجمعني به صحبة أبدية، أقول له فيها كل ما يعتدل في نفسي،  
ويكشف لي عن مكنون "الكاريزما" الجبارة التي يتمتع بها.

لم يكن ذلك سهلاً، لم تكن هناك آنذاك الوقت مبررات صحبة  
وصداقة مع فارق السن. علمت أنه كان رئيس قسم اللغة العربية ثم أصبح  
عميداً لكلية الآداب، ثم أصبح نائباً لرئيس الجامعة.

أستاذ متفرغ لمادة "الشعر الجاهلي" والنقد الأدبي الحديث، وأحد  
كبار المعجبين بطه حسين.

التقيت به مرة أخرى في العام الدراسي الرابع والأخير بالكعبة، عندما  
كان يدرس لنا "النقد الأدبي الحديث"، ولاسيما الوحدة العضوية للقصيدة  
الشعرية الحديثة، كما رصدها الناقد الإنجليزي المعروف "كوليردج". كنت  
قد تعرفت في فترة التبلمذة هذه المتأخر بكثير من أساتذتي، الذين هم  
تلاميذ د.زكي الدفراوي، وكان أقربهم لي د.سعيد وافي، الذي لم تنقطع  
علاقتي به على مر السنين، وكتب الكثير من الدراسات عن أعماله  
الأدبية.. وجاء الوقت المناسب لأسأله عن سر الشخصية المبهرة لـ د.زكي  
الدفراوي، وقدرته على كسب عقول وقلوب كل من حوله، الذين يكونون  
له كل الهيبة والاحترام والحب. سألت الدكتور سعيد وافي عن رأيه قبل أن  
يجيبني فقلت:

- يصلح أن يكون زعيماً سياسياً أو رئيس حزب أو وزير ثقافة أو رئيساً  
لهيئة "اليونسكو".

ابتسم د. سعيد، وقال بانفعال زائد:

- لم تضع يدك على مفتاح شخصيته.. الأستاذ خلق ليكون أستاذ جامعة.. التدريس بالنسبة له عملية تعد في محراب.. لو خير بين كل مناصب الدنيا وأستاذيته فسيختار الأستاذية.. الجامعة بالنسبة له هي دير الراهب، وهو الراهب الذي يدعو تلاميذه المريدين إلى التسامح والمحبة والإخاء والصفح عن المسيئين وذوي الطباع السيئة.. هو رومانسي حصل على الدكتوراه عندما أثبت أن النزعة الرومانسية موحدة حتى في الشعر الجاهلي.

ومع شدة إعجابي ب د. الدفراوي كنت أشعر بأن هناك شيئاً ما لا يجعلني أتوحد مع شخصيته، ربما شعرت أنه مجامل أكثر من اللازم، ولا يتصادم مع أحد حتى لو اختلف معه، ورأيت أن المحبة وحدها لا تصنع مستقبلاً في زمن يحتاج إلى موقف واضح، من النزاعات والصراعات القائمة. كنت قد حصلت على ليسانس الآداب، عندما جمعتني به ندوة في قصر ثقافة الحرية بالإسكندرية، وكان يناقش مسرحية "مأساة الحلاج" لصالح عبدالصبور، وعندما فتح باب المناقشة قلت إن "الحلاج" لم يصلب على شجرة بتعمة الزندقة، وإنما لأنه دافع عن الفقراء وحقهم في العيش الكريم، بما ينم عن مطالبته للسلطة بتحقيق العدالة الاجتماعية، وهذا ما قصده صالح عبدالصبور.

لم يتحمس د. الدفراوي لراي، بل تجاهله تماماً، ولم يعلق عليه، وعندما انتهت الدورة انفرادي شاعر صديق، وقال لي بتشجيع: "أنا معك في الرأي الذي قلته عن الحلاج"، وتحمست للتعبير عن وجهة نظري فقلت

إن وظيفة الأدب في رأيي تعبير عن الهموم الاجتماعية وتغيير الواقع للأفضل، وتمنيت أن يشاركني الأستاذ في رأيي، سألته ما هي وظيفة الأدب في نظر الأستاذ، ارتاح لسؤالي كأنما توقعه، وقال بلهجة الشاعر المتمكن من حرفيته لأديب مبتدئ: "الدكتور الدفراوي ينتمي للمدرسة الرومانسية التي ترصد العواطف والمشاعر التي يكشف عنها الشاعر في شعره، والتي قد تتعرض لهموم الواقع، ولكنه ليس من أنصار الأدب الملتزم بقضية، عدت أسأله باستغراب: "وماهي إذا قضية الأستاذ؟" قال بلهجة الواعي العارف: "الأستاذ صاحب رسالة جامعية، ويحظى بقلوب تلاميذه ويتمني ان يصبح رئيس جامعة الإسكندرية مثلما أصبح "طه حسين"، قلت بحماس متشدد: "كان طه حسين صاحب موقف في زمانه.. طور التعليم الجامعي.. حقوق مجانية التعليم.. كان صاحب منهج جديد في البحث والتفكير" قال لي وكان معه حق في قوله: "أنت شديد الإعجاب بالدكتور الدفراوي، وترى فيه مثلك الأعلى، ولكنك تريد أن تشكل مثلك الأعلى وفق هواك، وهذا يحتاج منك لمراجعة".

تواصل إعجابي بالدكتور زكي الدفراوي كأستاذ جامعي لا يشق له غبار، وكانسان يفيض بإنسانية على كل من حوله، ويغمر تلاميذه بأبوة منقطعة النظير، علمت أنه تزوج من زوجة أخيه، بعد وفاته ليرعاها ويرعى ولديها، وكان نعم الزوج والأب، ولم أسمع أن كانت له علاقات غرامية، رغم وسامته ورشاقتة واحتفاظه بحيوية الشباب ودماثة الخلق وحلو الكلام وحميمية الطباع أعترف أن هذه المسألة قد حيرتني كثيرا.

حرصت على إهدائه نسخة من كل مجموعة من مجموعاتي القصصية الثلاث التي أصدرتها تباعا، ولم أخط بانطباع أو تعليق أو رؤية نقدية، وعندما أبدت هذه الملاحظة للدكتور سعيد وافي، تلميذه ومدرسي بالكلية، قال لي بصراحة: "تذكر أن الأستاذ عاشق للشعر والشعراء، ولا يهتم كثيرا بالقصة والرواية"، قلت له إن طه حسين، المهتم بالشعر والشعراء أيضا، نقد القصة والرواية، بل كتب الرواية قال لي بظرف: "لقد أعطاني الدكتور الدفراوي توكيلا رسميا عاما بنقد القصة والرواية بالنيابة عنه"، لاحظت أيضا أن الدكتور الدفراوي كان يشرف على رسائل "المجستير" والدكتوراه، المتخصصة في الدراسات الشعرية، وكان رقيقا في نقده للمتقدمين بهذه الرسائل، بدرجة تشي بروح التعاطف والمجاملة، بعيدا عن التوجيه الصارم والتقييم الحافز للهمم، ولم ألاحظ أن أحدا من الذين أشرف على رسائلهم قد سطع نجمه وبرز بفرده العلمي، ومع ذلك كان الدكتور الدفراوي هو نجم المناسبات الأدبية والاحتفاليات الثقافية في كل منتديات الإسكندرية، بما يملكه من هبة الحضور ولغة عربية "جدلة" ومظهر أخاذ، تلك الصفات المطلوبة لتكريس الحضور الإعلامي، الذي أصبح ضرورة من ضرورات العصر.

ثم حدثت مفاجأة لم تخطر لي على بال رأيت الدكتور زكي الدفراوي أمامي يملأ شاشة التلفزيون، بكل ما يملك من حضور شخصي وإعلامي، وهو يناقش رسالة الدكتوراه للسيدة جيهان السادات، حرم السيد الرئيس أخذت أتابع بشغف واهتمام لا يخلوان من حيرة وتساؤلات، كيف ولماذا تم ترشيح الأستاذ لعضوية لجنة المناقشة! المناقشة تدخل في صلب نشاطه

الجامعي، لكن الطابع الإعلامي سوف يتغلب بالتأكيد على الطابع العلمي، المسألة التي تستحق التوقف عندها في هذا الوقت، هي أن شعبية الرئيس السادات، في نهاية السبعينيات، قد تراجعت كثيرا بسبب الغلاء والانفتاح العشوائي وتراجع القطاع العام والفساد، كيف قبل الأستاذ هذه المهمة في هذا الوقت؟! سألت الدكتور سعيد وافي.. هل هو العائد المادي، أم اللمعان الإعلامي، أم الوقوع تحت ضغط لا قبل له به؟ لم يشأ الدكتور سعيد أن ينتقد أستاذه أو يدينه، قال لي باقتضاب يوحي بأنه غير مستعد للمجادلة: "لا أحد تواتيه مثل هذه الفرصة فيرفضها أو يعتذر عنها.. دعنا نتكلم في موضوع آخر"، سألته بغضب بدا له صبيانيا يكشف عن مراهقة فكرية: "أين الموقف؟! أين الرؤية؟! لا يجوز تحدي الشعور العام بهذه الجراة، استغرق في الضحك وقال لي بنصف الفنان الكامن في أعماقه: "لم يشتهر معظم شعراء العربية إلا بعد مدح الخلفاء وولاة الأمور.. أنصحك بقراءة كتاب العتب واللامعقول في زماننا هذا حتى تكتمل رؤيتك للحياة الإنسانية عبر كل العصور".

ثم حدثت مفاجأة أخرى بعد ذلك بعام تقريبا، قدمت أعمالي القصصية لصاحب برنامج "ندوة ثقافية" بالتلفزيون أبدى إعجابه فطلبت مناقشتها في برنامجه، وعرضت عليه اسم أستاذ وناقد جاد ومتخصص في مجال القصة والرواية، لم يبد موافقته على المناقشة، وطلب من بلهجة قاطعة أن أسعى لمرافقة الدكتور زكي الدفراوي، لمناقشة أعمالي في البرنامج.

صارحته بأنه غير متخصص في القصة والرواية أنهى المقابلة، وهو يقول بحسم جازم: هذا رأيي.

قبلت العرض، لم أكن انتهازيا في قبول العرض، ولكني أردت أن أفهم ما يجري في الساحة الثقافية بطريقة تجريبية عملية. استغرقت الأمسية حديثا تفصيليا طويلا عن مسيرة الدكتور زكي الدفراوي من أجل إحياء اللغة العربية وتطوير الشعر العربي وإعلاء شأن الشعر العربي وإعلاء شأن الحياة الثقافية، باعتبار الأستاذ رمزا من رموز عصر الإحياء والتنوير، اكتشفت في هذه الأمسية أن الدكتور الدفراوي يقرض الشعر، ولم أكن قد قرأت له قصيدة واحدة، لم يبق في الأمسية سوى بضع دقائق قليلة، تلك التي تحده فيها الأستاذ عن أعمالي القصصية في عجلة انطباعية سريعة. الشيء المذهل الذي لم أكن سعيدا به، هو أن شهرتي قد عمت الأوساط الأدبية والثقافية والإعلامية، رغم أنني كنت في بداية الطريق، ولم تكن قد ظهرت دراسات نقدية جادة وكافية، بعد لأعمالي القصصية.

كان فوزي بهذا اللقاء التلفزيوني مفاجأة مدهشة للدكتور الدفراوي وهكذا اعتبرني نجما صاعدا من نجوم الحياة الأدبية، وأني أمتع بصلات ممتازة بالوسط الإعلامي استدعاني بعد هذا اللقاء بشهور، وكلفني بالإشراف غلي مجلة "تجليات السكندرية"، التي كان يرأس مجلس إدارتها، قبلت هذا التكليف من باب تشجيع المواهب الأدبية الجديدة الواعدة، بعيدا عن المجاملة وجبر الخاطر، وبعد بضعة أعداد لقيت المجلة قبولا وتقديرا لا بأس به ثم بدأت أفاجأ بموافقات عديدة علن نشر أعمال شعرية وقصصية، جون أن تعرض علي لجنة فحص الأعمال، وعندما رفضت نشرها لضعف

مستواها الفني، قال لي رئيس التحرير بحيم لا يقبل النقاش: اطلع الدكتور الدفراوي على هذه الأعمال، وأوصي بنشرها"، أدركت، أنني غير قادر على القيام بمهمتي، فاعتذرت عن عدم الإشراف على المجلة، وعوقبت بسبب ذلك بعدم نشر قصصي ومقالاتي بالمجلة.

أصبحت لي علاقات كثيرة في الوسط الصحفي، كنا انتقى الصحفيين الشبان، الذين لم يتورطوا بعد في لعبة التوازنات وحسابات النفوذ والمصالح ويحدهم طموح جارف لتحقيق وجود مهني حقيقي وصادق، وكان بينهم الصحفي اللامع مصطفى عبدون، الذي قرر أن يتبناني باعتباري أدبيا صاعدا، رغم أنه في سن ابني أكرم، وقد قبلت أبوته لي بصدر رحب وعن طيب خاطر، تقديرا لكفاءته وطموحه، وموضوعيته البعيدة عن المجاملة والنفاق ولم تنقطع صلتني به على مر السنين والعقود، فوجئت به ذات يوم يقترح على عمل صالون ثقافي شهري للدكتور زكي الدفراوي، أدهشني العرض، قلت له بالصرحة المعهودة التي بيني وبينه: "ليس عند الأستاذ الجديد الذي يقدمه" قال لي بخبرة الإعلامي: "أولا.. هو أستاذ جامعي وله وجه إعلامي جذاب.. ثانيا.. لا يهم ما يقوله.. المهم هو ما يقوله رواد الصالون من الأجيال الجديدة"، أقتعني بالفكرة عرضتها على الأستاذ. وافق بلا تردد استمر الصالون عدة شهور، لم تكن هناك أفكار واعدة أو مبادرات خلاقة، غاب الملهم مثلما غابت روح النقد الشجاع، انصرف الرواد. انفض الصالون دونما حاجة لإعلان انفضاضه.

فوجئت بعد ذلك بأن الدكتور الدفراوي قد تفرغ لكتابة الشعر، بعد أن أحيل إلى المعاش بسنوات، وقد نشرت له قصائد كثيرة في الصحف

والمجلات بانتظام ملفت، كانت قصائد رومانسية عاطفية لاتمس الواقع من قريب أو بعيد، علمت بعد ذلك أنه قد أصبح عضوا فعالا في معظم لجان مكتبة الإسكندرية العالمية، بفضل جدالة التعبير ودماثة الخلق والطباع، ثم فوجئت بأنه حصل على جائزة الدولة التقديرية، ولم تسعفني الظروف للإطلاع على حيثيات حصوله على هذه الجائزة، ودوره البارز الذي قام به لخدمة الحياة الثقافية، وحل موعد الحفل المهيب، المذاع على الفضائيات العربية، حيث تسلم الأستاذ صك الجائزة المكتوب بماء الذهب، من السيد الرئيس، مع غيره من الفائزين بشتى الجوائز وبعد انتهاء الحفل، الذي كنت أشاهده في التليفزيون، حاصره الصحفيون من شتى الدوريات المحلية والعربية، ليتعرفوا على إنجازاته ومشروعاته المستقبلية ونضاله من أجل إثراء الحياة الفكرية.

حرصت جامعة الإسكندرية على تكريم الدكتور الدفراوي، باعتباره أحد رموزها المرموقين، انعقد شمل الاحتفال في دار أوبرا الإسكندرية تغير اسمها من مسرح محمد على إلى مسرح سيد درويش إلى دار الأوبرا وسط حشد كبير من الأساتذة والأدباء والشعراء والمفكرين، حرصت على حضور هذا الحفل، لفهم ما يجري وما يحدث. جلست في الصف الأخير من القاعة، لأتجنب حوارات مجاملة، لا تكشف عما تخفيه الصدور، فوجئت بشاب تبدو عيبه اليقظة والتفتح يجلس بجانبني، ويقول لي إنه يعرفني، وقد قرأ الكثير من قصصي ورواياتي، وأنه بصدد كتابة دراسة مستفيضة عنها، أخذ يحدثني بمجدية وموضوعية عن سلبيات الحياة الثقافية، ثم فاجأني بسؤال مباشر صريح: "هل أنت مقتنع بأحقية الدكتور زكي الدفراوي لهذه الجائزة،

مع تقديري أنه ودود ومحبوب من الجميع، ولكنه لا يتمتع بطبيعة مقاتلة، ولا قبل بالاختلاف مع الآخرين إذا اقتضى الموقف الاختلاف، وهو هكذا يبدو بلا موقف أو رؤية، عاد يسألني باستنكار: أين تلاميذ الدكتور الدفراوي؟.. دلي على تلميذ واحد من تلاميذه، أثبت وجوده العلمي".

توقف قليلا عن الحديث، وهو بادي الغيظ والنفور عاد يقول لي بأسى عميق، كيف أنه حصل على ترتيب الأول على دفعته، ونجح بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف، ولم يشك أحد في أنه سيعين معيدا بالكلية، ولما تم استبعاده لجأ إلى الدكتور الدفراوي، بحكك نفوذه وتأثيره النافذ، ليستعيد حقه في التعيين، وبعد أن حصل على وعد أكيد، عاد الأستاذ ليقول له إنه بذل أقصى ما يستطيع ولكنه لم يوفق في مهمته، ومع ذلك طلب منه علاء "ابن الأستاذ" أن يساعده في إعداد رسالة "الماجستير" فبذل معه أقصى جهد ممكن، حتى أنه كتب له الرسالة بأكملها، بحكم الزمالة والصدقة والشهامة .

أوشك الاحتفال على النهاية، بعد أن قدم كثيرون شهادات التكريم المستفيضة، فطلب الشاب الجالس بجواري الكلمة، تجاهله مدير الاحتفال، فاندفع الشاب نحو المنصة، وأخذ يقول أكثر مما قاله لي، بموضوعية، ودونما تجريح. اندفع نحوه حرس الجامعة، قيدوا حركته، وقادوه، عبر الممر وسط الحاضرين ورغم مقاومته، ليخرجوه من القاعة.

توقف بالقرب مني وهم يجرونه، وقال لي وهو مجرور:

- هل تعلم أن علاء "ابن الأستاذ" هو الذي حصل على وظيفة المعيد، بدلا مني رغم أنني أعددت له رسالة الماجستير، التي عين بموجبها؟!

وأخذ الدكتور الدفراوي يغيب عن الأنظار، بعد أن سافر إلى لندن ليجري جراحة قلب مفتوح، لتغيير ثلاثة شرابين، ولم يعد يغادر بيته بعد ذلك، زرته في بيته لأهنيه بالشفاء لم يعد ذلك الأستاذ الوسيم الذي يضج بحبوية هائلة، بدا أنه لا يهتم بشيء مما يدور حوله، تهدلت عضلات وجهه، غامت عيناه بظلمة خالية من أي معنى. لا أظن أنه قد عرفني، لم يمض وقت طويل حتى سمعت بخبر وفاته، حرصت على المشاركة في جنازته، جنازة مؤثرة مفعمة بالأشجان، وبعد أن أودع جثمانه الثرى، صحبني الدكتور سعيد وافي في سيارته، لأبادله حزنا بحزن. قطعنا طريق الكورنيش من مقابر "عامود السواري" حتى قصر المنتزه، وفي أثناء الطريق قال لي، كأنما يلخص تجربة الأستاذ بصدق وتجرد.

- لم يكن له عدو واحد.. لم يحفظ التاريخ أشعاره التي كتبها في سن متأخرة.. لم يتوقف تلاميذه عند حديثه الفياض عن الوحدة الشعرية للقصيدة الجاهلية.. كان متصالحا مع نفسه.. ترك وراءه رصيда هائلا من المحبة.

لم أشأ أن أقول شيئا، يفسد تداعيات لحظة القراق، ولكنني قلت في نفسي:

- ولكن الأستاذ ترك ما لقيصر لقيصر.



## أنور بدير

رغم أننا دخلنا الكلية الحربية معا، في نفس عام قيام الثورة يوليو 1952، فلم أتعرف عليه إلا بعد تخرجنا والتحاقنا بالكتيبة 15 مشاة بمعسكر مصطفى كامل، بالإسكندرية كنا ستة ضباط برتبة ملازم ثان، لم يدخل احدنا الكلية الحربية بكشف أطيان أو كارت توصية من لواء عامل بالجيش، لم يمض وقت طويل حتى تحولت الزمالة إلى صداقة، جعلتنا نقضي معظم أوقات فراغنا سويا، كان من أسرة صعيدية فقيرة، من قرية إخميم محافظة سوهاج.

لم تطل خدمتنا بالإسكندرية أكثر من بضعة شهور، حتى انتقلنا للخدمة بمدينة العريش في سيناء، جمعتنا اهتماماتنا الثقافية، كنا نحمل معنا بعد عودتنا من الإجازات كتبا عديدة، من سلاسل جديدة رخيثة، نتحدث عن الاشتراكية والوجودية والثورات الوطنية وبعض الحقب التاريخية والمذاهب الفكرية، ونقضي معظم وقتنا في المناقشات وتبادل الأفكار، ولم نكن نشغل كثيرا بما ينشغل به الشباب من أمور اللهو واللعب وصحبة الفتيات.

انتقلنا بعد ذلك بعام للخدمة بمدينة رفح، عند الحدود الدولية مع

إسرائيل.

هكذا تواجهت مواقفنا مع العدو الإسرائيلي.. نشغل بمراقبة العدو ومتابعة تحركاته وإرسال الدوريات الليلية المنتظمة، كان المشهد مثيرا، يدعو للحذر واليقظة والترص وتوقع الاستشهاد، ومع ذلك لم تنقطع جلساتي المسائية الثقافية مع أنور بدير.. فاجأني ذات مساء بسؤال، بدا غريبا علي سمعي: "هل قرأت كتاب رأس المال لكارل ماركس؟، لما أجبته بالنفي عاد يقول لي: هذا كتاب يستحق القراءة.. لا يجب أن تفوتك قراءته.. سأعطيك كل جزء انتهى من قراءته"، هكذا واصلنا قراءة هذا الكتاب، أخذ يشرح لي مسألة، فائض القيمة، وكيف أن صاحب رأس المال يتقاضى أرباحه من جهد وعرق العامل، وبدا أننا قد أصبحنا اشتراكيين علميين، مع استمرار القراءة والوعى، وفي حدود علمنا، لم نكن نخشى المسألة، باعتبار أن الثورة ترعى حقوق العمال والفلاحين والقراء.

ثم حدث العدوان الثلاثي في سبتمبر 1956، وصدر قرار الانسحاب، لم يكن انسحابا منظما، تفرق شمل الكتبية، تحت وطأة الضربات الجوية الإسرائيلية، وانسحب الجميع فرادى ومجموعات، كل حسب اجتهاده وجهده وقدرته علي التصرف والمناورة، ثم صدر القرار الدولي بالانسحاب من سيناء وبورسعيد دونما تأخير، ثم جرى إعادة بناء القوات المسلحة، وهكذا تجمع شمل الكتبية مرة أخرى في معسكر "الهرم" بالقاهرة، ووجدت نفسي وجها لوجه مع أنور بدير، بعد رحلة انسحاب مريرة، شربنا فيها بولنا، وأكلنا حشاش الأرض، وضممنا جراحنا ببقايا ملابس الشهداء.

اشتركت مع أنور بدير في استئجار شقة بحي المنيل في الجية استغرقنا في قراءة الكتب بنهم شديد، حدثني أنور بدير عن مضمون كتاب "التفسير الماحي للتاريخ"، لكارل ماركس كان يقول لي في نهاية كل مناقشة طويلة: "الاشتراكية هي الحل" سألته ذات يوم، لماذا لا تفكر في التعرف على فتاتين لنقضي معهما وقتا ممتعا، قال لي بصراحة الصعيدي المحافظ: "الحياة قصيرة، لا تحتمل تضييع الوقت في المسخرة.. لم يضيع عبدالناصر وقته في مناجاة حبيبة. الفقراء يحتاجون للأفضل".

لاحظت مع مرور الوقت أن أنور بدير يغيب طويلا عن المنزل، بعد عودتنا من العمل، ويعود متأخرا بليل، لم أعرف أين يذهب، ولم يدعني لمصاحبتة، وعندما عبرت عن قلقي واستغرابي قرر أن يصارحني بما يفعل أشعل سيجارة وسحب نفسا عميقا، وبدأ يقول باستفاضة مثالية:

- الوعي بمشاكل الناس لا يكفي لتغيير حياتهم.. المطلوب هو الممارسة الواقعية العملية للتعبير عن هذا الوعي.. الوعي بما هو موجود وبما يجب فعله.

أخذ يحكي لي كيف حول وعيه بهموم الناس إلى فعل واقعي، عندما التقى بابن عمه "حمدان"، الذي يعمل سائق تاكسي، ويعيش في حي لاظوغلي بالقاهرة، وشكى له سوء حاله وظلم مالك التاكسي له، عرض عليه أن يشتري تاكسي بالتقسيط، ويصبح شريكا له في الأرباح، وليس عاملا بالأجرة.. وهو يأمل أن يصبح هذا المشروع الصغير نواة لمشروع

اشتراكي كبير.. وهو يتعجب لأنه بذل جهدا كبيرا، طن أنه لا حاجة إليه، لإقناع حمدان بأنه شريك وليس أجير.

عاني أنور بدير من ضيق مادي جاد، ليسدد أقساط التاكسي وتدبير معاش حمدان.

لم يمر عام حتى فشل المشروع، بسبب إهمال حمدان في إصلاح تلفيات التاكسي وصيانته وعدم الانتظام في العمل، فرح بحق الشراكة ولم يتحمل المسؤولية، عجز عن مواصلة المشروع بعد أن زادت خسائره.

تضاعفت الخسارة عندما باع السيارة بأقل من ثمنها الحقيقي، ليسدد باقي الأقساط، أصابته التجربة بصدمة أليمة، حيث أدرك أنه مني بفشل ذريع وهو يمتحن أفكاره.

لاحظت بعد ذلك أن فؤاد مطاوع، زميلنا في الكتبية وأحد ضباط دفعتنا الستة، وضابط أمن الكتبية، يوطد علاقته بي، ويطلب مشاركتنا، أن وأنور في السكن، حيث اختلف مع أبيه ولم يعد قادرا على مواصلة العيش في بيت الأسرة، رفض أنور بدير رفضا قاطعا، كان يعتبره انتهازيا متطلعا، لا يوحى بالثقة، ولا يتخرج من الوشاية بأخيه، وتتوافر فيه صفات ضابط الأمن، ولا يبورع عن فعل أي شيء يغذي طموحه ويشبع غرائزه، منذ هذا الوقت، لم يتوقف فؤاد مطاوع عن مطاردتي بأسئلة كثيرة عن أفكار أنور بدير وتصرفاته.. ماذا يقرأ؟ أين يسهر؟ من أصدقائه المدنيون؟ شعرت بأنه يستجوبني ويتحرى عن أنور بدير، خصوصا عندما زارني فجأة في البيت، وفي غياب أنور، وأخذ يتصفح كل الكتب الموجودة، ويقلب في

الدوايب متظاهرا بالعموية ومجرد الفضول، نقلت شكوكي وهواجسي لأنور بدير، فأدرك أن فؤاد مطاوع يراقبه، وربما عرف شيئا عن مشروعه الفاشل وأفكاره الاشتراكية.

لم يكن أنور معاديا للنظام، لم يشعر بأنه يفعل شيئا ضد شرف الجندي ومتطلبات الانضباط العسكري ولم يشأ أن يكون ضحية وشاية لا أساس لها من الصحة، تخلص تماما من كل الكتب التي في حوزته، حرص على أداء الصلوات في موافقتها، حمل في جيبه مصحف صغير، تعمد الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم وهو يتكلم أو يتجاور مع فؤاد مطاوع، أدركت دوافع هذا التحول المفاجيء الكبير، ومع ذلك أردت أن أستوضح مغزى هذا التحول.. هل هو رده أم مناورة؟<sup>1</sup> قال لي أنور بدير ببساطة: "الإسلام يدعو للاشتراكية.. اشتراكية لا يعاقب عليها القانون" وفي أثناء اجتماع ودي على الغداء مع قائد الكتيبة، قال لقائد أنور بدير: "أنا سعيد بحالة التقوى التي أنت عليها الآن"، هكذا اطمئن أنور على مستقبله ولم تتبدد شكوكه حيال فؤاد مطاوع.

مرت سنوات وأصبح أنور بدير مدرسا بالكلية الحربية، ومحل تقدير قادته، الذين توقعوا له مستقبل واعداء، يجمع بين العلم والقودة والانضباط، إلى أن حان صدور قرار إغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية، وإعلان التعبئة العامة، توقعا لنشوب الحرب، كان أنور منتدبا للتدريس بالكلية الحربية، وكنت أنا منتدبا للتدريس بمدرسة المشاة، تقرر سحب الضباط المنتدبين لتشكيل وحدات جديسة يتم دفعها إلى جبهة

القتال، وجدت نفسي مرة أخرى أعمل مع أنور في جبهة واحدة، مشكلة حديثاً من الجنود الاحتياط، الجنود مازالوا بملابسهم المدنية، والسلاح مازال في الصناديق، ولم يتم إعادة تأهيل الجند، لتمكينهم من تحقيق مهام القتال. حملتنا عربات مدنية "لوارى" مسحوبة من شركات القطاع العام، لتقلنا إلى مواقع غير مجهزة غربي العريش، لاتوجد اتصالات منتظمة مع القيادات، ولا تعليمات واضحة محددة لحظة قتال، سألي أنور بذهول: ما الذي يحدث؟.. مظاهرة هي، أم استعداد حقيقي للقتال؟! كيف يتم تحرير القدس بفوضى هذه الحشود؟! وحل الخامس من يونيو 67، حدثت الهزيمة المروعة أصابتنا صدمة هائلة في مقتر، أخذنا تراجع حصاد مشروع يوليو الثوري، لم تبد لنا بارقة تفاؤل، قال أنور بدير بأسى مرير: "سقطت شرعية يوليو.. لا مفر من شرعية جديدة".

كان أنور قد قطع شوطاً طويلاً على طريق التدين، تحول أداء الشعائر والطقوس إلى اعتقاد عميق بجمالية الاعتماد على الله وحده واستلهاهم عدالته لتصحيح المسار، لم يكن حذراً في تعليقاته وآرائه، لم يكن راضياً عن التساعل في محاسبة المسؤولين عن النكسة، بدا غاضباً لا تخلو أحاديث من نقد الأوضاع، لم تكن الظروف تحتل الانتقاد داخل صفوف الجيش. تم القبض عليه مع مجموعة من زملائه المنتقدين، استغرق التحقيق وقتاً طويلاً، مصحوباً بكل وسائل الضغط المهينة، تمكنت بعد محاولات عديدة من زيارته في السجن بدا لي واثقاً من نفسه، يتمتع بإيمان عميق، مطمئناً لبراءته، تعكس ملامحه ما تعرضه من آلام نفسية وجسدية قال لي بصراحة، ولم يكن قد فقد شجاعته: "نجح فؤاد مطاوع في الوشاية بي..

لمس يستطيع أن ينسى الخصومة القديمة.. استغل موقفه في جهاز المخابرات.. ليست هناك أدلة على شروعي أي عمل تحريضي أو انقلابي.. مجرد تعليقات غاضبة في مجالس الأصدقاء لا تمثل اتهاما ولا تثبت جريمة.

ثم حدثت المفاجأة. استدعاه مدير المخابرات هنأه ببراءته اعتذر له عما أصابه من إيذاء. أبلغه بأنه يستطيع أن يعود إلى وحدتي كأن شيئا لم يكن، رفض أنور بدير قال بإباء واعتداد: هذا مستحيل.. كيف أواجه جنودي بعد كل ما تعرضت له من اتهامات وإهانات؟ عرض عليه المدير أن يختار أي وظيفة مدنية في أي وزارة، قال أنور وهو يعتذر عن القبول: احترامي لنفسي يمنعني من قبول أي ترضية، لا تعوضني عن اتهام ظالم.. ليس عندكم تعويض يشفيني من الشعور بالقهر وامتهان الكرامة.. ومع ذلك أشكرك من كل قلبي علي صدوق الحكم ببراءتي.. استأذني في قبول استقالتي، واعتذاري عن قبول معاش"، هذا ما حكاه لي أنور بعد براءته.

تواصلت صداقتي معه بلا تحفظات أخذت أتابع باهتمام كيف سيواصل حياته، فوجئت بأنه التحق بجامة الأزهر، وحصل على شهادة العالمية بعد أربع سنوات، لم يعد بيننا حوار مفتوح على كل الآراء، شعرت بأنه قد تحول إلى صندوق مغلق، يتعامل مع الواقع بمنطق الرفض والاحتجاج، ويغريني من طرف خفي، ومن منظور دينس باتباع نفس الخط ونفس الاتجاه، أبلغني بعد ذلك أنه حصل على عقد عمل بالتدريب في

السعودية. علم بأني حصلت على ليسانس الآداب قسم لغة عربية، فقال لي وأنا أودعه في المطار: يمكنني أن أدبر لك عقدا لتلحق بي هناك، بجوار الكعبة ومسجد الرسول، ليكون ذلك متمشيا مع توجهاتي وأفكاري.

انقطعت صلتي به سنوات طويلة، لا أذكر عددها، فوجئت به وأنا في غمار انشغالي بنشاطي الأدبي والصحفي، يبصل بي ويدعوني لزيارته "بالفيلا" التي يملكها في حي الزمالك بالقاهرة شعرت برهبة محيرة وأنا أدخل من باب الفيلا، استغرقت بعض الوقت وأنا أقطع الممر الذي يتوسك حديقة مغطاة بشتى أنواع الزهور. لاحظت عربية "بيجو"، تظهر مقدمتها من باب "جراج" مفتوح وتبدو من موديل نفس العام، جلسنا في الشرفة الواسعة المطلة علي النيل، انتظرت أن يحدثني عن تجربته وإنجازاته لم يقل شيئا متصلا بالواقع والحياة، بل حدثني عن جوهر التجربة الإيمانية وما تتطلبه من اتباع فريضة الجهاد لمواجهة المرتدين والكافرين، من أمثال "السوفيت" في أفغانستان، والصهاينة في القدس، والأنظمة الخانعة في درك الظلام.

استشعرت بقلق، لم تخف عني أسبابه ودواعيه أدركت أن أنور بدير الذي بدأ ماركسيا هاويا، قد تحول إلى مسلم أصولي عنيد، لم يكن عندي ما أقول، مثلما لم يبد أنه يسمح بأي خلاق أو اختلاف، توقعت أن أسمع يوما أنه انضم إلى العرب المجاهدين الذين يقاتلون "الكفار السوفيت" في أفغانستان. شعرت بأنه لم تعد هناك دوافع أو مبررات لاستمرار الصدقة التي جمعتني بأنور بدير عبر أحداث جسام، اللهم إلا رفعت راية فريضة

الجهاد، هكذا انقطعت صلتي به، ولم يعد بيننا اتصال أو سؤال ثم جمعتني الصداقة، بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد 1979، بالزميل فؤاد مطاوع، في نادي الجزيرة بالقاهرة، علمت منه أنه أصبح يشغل منصبا كبيرا في جهاز المخابرات، تحدثنا طويلا في تداعيات ما بعد المعاهدة، وما تلاها من تحولات ومتغيرات، إلى أن سنحت الفرصة لسؤال عن أخبار زميلنا السابق أنور بدير، قال بلهجة الواعي العارف: "الدنيا تغيرت الآن.. التيار الإسلامي أصبح قويا رهيبا، بعد استبعاد الشيوعيين والناصرين..

أنور بدير أصبح قطبا كبيرا، يعمل له حساب، ولا تحد أحلامه حدود"، عاد فؤاد مطاوع يقول لي بلهجة لم أفهم مغزاها يمكنك معاودة الاتصال به.. ربما تفوز بقطعة من الكعكة.. لا أعرف كيف انتابني الفضول لمعرفة أخبار أنور بدير بعد حادث المنصة، عام 1981، حرصت على الاتصال بفؤاد مطاوع، الذي ضرب لي موعدا في نادي الجزيرة، حيث يجتمع أصدقاؤه بانتظام، بعد أن أصبح مديرا لفرع شركة "كوكاكولا" بمصر، قال لي وأنا أسلم عليه، وقبل أن يدعوني للجلوس.

- تريد أن تسألني عن أخبار أنور بدير.

- هذا ما أريد بالضبط.

هاجر إلى أمريكا بعد أن حول ملايينه إليها.

- هل أصبح عنده ملايين؟

- يصعب أن تعرف كيف حصل عليها.. هو الآن نجم من نجوم العولمة.

غرقت في ضحك كالبكاء، أخذت أجفف دموع الضحك، وأنا  
أسمع فؤاد مزاوع يقول بواقعية، تنسم بالمبالغة، وبشطحة خيال له مغزاه.  
- ربما يحلم الآن بأن يكون صاحب شركة متعددة الجنسيات.

## محيي بدران

لم أفهم ولم أتصور كيف عرض عليّ أبي - وهو مدرس اللغة العربية - أن أتعاطى درسا خصوصا في اللغة العربية، في منزل الأستاذ محيي بدران، في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، كنت في السنة الثالثة الثانوية، وكان الأستاذ "محيي" هو الذي يدرس لفصلي اللغة العربية، لا أستطيع أن أنساه منا - نحن التلاميذ نفرح بحصته، نسترخي لصوته العذب الجميل، لأسلوبه السهل في الشرح والتعبير.. ممشوق القوام، فارع الطول، نرتاح لملامح وجهه المتناسقة، الهادئة المسترخية، يبدو مثالا لأب خان عطوف، لم نره غاضبا ولومرة واحدة، صبور طويل البال كأنه ليس من طينة البشر.

لم أتردد لحظة واحدة في تحصيل درس خصوصي على يد الأستاذ محيي بدران.

وبدأت الدروس. كنت أتلهف على موعد الدرس في منزله، بدا الدرس كأنه لقاء صحبة بين صديقين، لقاء ودود بين أب وابنه، كثيرا ما أشرد في دروس النحو والبلاغة، فيتوقف عن التدريس، يسألني ماذا أشرب، أطلب كوب شاي بلا حرج، يأتي الشاي مصوحبا بطبق "هريسة" يسألني عن أحوالي، ماذا أحب وماذا أكره؟ يسألني عني زملائي واصدقائي.. كيف أتعامل معهم ومن هو الصديق المفضل؟ ثم نعود للدروس

وأنا أكثر استعدادا للتلقي والفهم، هكذا تقدمت كثيرا في النحو والبلاغة، بل أصبحت أحب اللغة العربية لدرجة العشق، شعرت بأنني يمكن أن أصارحه بكل ما يجول بنفسي، دونما خجل أو حرج أو تردد، شكوت له مرة من سوء معاملة أبي لأمي، فطلب من أن أكتب ذلك في موضوع تعبير أصبحت أتعجل موعد الدرس ارتدي أحسن ما عندي أقطع الطريق من شارع "الكنوز" بحي محرم بك إلى شارع صبري أبو علم بحي منشا، وكأنني أقضي رحلة سعيدة أتمنى أن تطول سألته ذات مرة لماذا أفهم منك الدروس ولا أفهمها من أبي؟ طلب مني أن أجتهد في معرفة السبب قلت له إني عقلي يبوقف واشرد طويلا، ولا أستطيع أن أسترجع ما سمعت. - ربما تخاف من أبيك وسلطته عليك.. الخوف مطلوب في التربية، وليس الرعب.

فكرت طويلا فيما قال: عدت أقول وأنا أفتح مغاليق صدري.

- ربما أخاف من إلى حد الرعب.. يتوقف عقلي وأنا أتأمل ملامحه الصارمة.. يصل غضبه أحيانا إلى حد العنف والاعتداء.. أتقرب من صحبتي حتى لو تظاهر بالرقة والملاينة والممازحة أحيانا.

لا حظت أنه يختار الكلمات وهو يقول لي:

- أنا أعرف أنه يجبك كثيرا.. أعرف منه أنك أحب أبنائه إلى نفسه.. الأبناء أحيانا لا يفسرون غضب الأب تفسيرا صحيحا.. غالبا ما يكون غضب الآباء في صالح الأبناء. سألته بتلقائية، تلغي الحاجز بين التلميذ ومدرسه.

- هل هو الذي طلب منك أن تعطيني درسا خصوصيا؟  
- لاحظت أنك تشرّد طويلا في الفصل.. لاتتابع ما أقول.. رأيت أنك  
تحتاج إلى اهتمام خاص.  
سألته دوّما تحفظ مطلوب.

- هل لأنه رئيس مادة اللغة العربية في المدرسة؟! رمقني بنظرة عتاب وهو  
يقول بموجة أبوية.  
- لاتكن سيئ النية.

أردت أن أعترّذ عن صراحتي الفجة فقلت.

- لو أنني قلت ذلك لأبي لصفعني على وجهي.  
- دعنا نعد إلى الدرس.

لا أنسى أنه كان يقدم لي "كبشة" من "الملبس" و"البومبوني" في نهاية  
كل درس، كنت أحرص على أن تكفييني حتى موعد الدرس القادم، انتهى  
العام الدراسي، وحصلت على أعلى تقدير في امتحان اللغة العربية، لم  
أحصل عليه من قبل. حرصت على زيارة الأستاذ "محيي" أثناء الإجازة  
الصيفية، كان يستقبلني بفرح وترحاب، سمح لزوجته أن تجلس معنا في  
الصالون، تسألني عن أحوالي وهي تقدم لي طبق "بسبوسة" زالت بيننا  
الكلفة تعاملت معها كأى ثانية، ربما كانت أكثر عطفًا وحنانًا من أمي.

حل موعد بدء العام الدراسي التالي.. طلبت من أبي أن أوصل  
دروسي الخاصة مع الأستاذ "محيي".. لم يتردد لحظة أغلب الظن أنه شعر  
بتحسن أحوالي النفسية، أصبحت أقول للأستاذ، أصبحت أقول له ما لا  
أقوله لأبي، انكسر حاجز الخوف في داخلي، عشقت اللغة العربية، نمت

وترعرعت ههوايتي الأدبية، ترددت طويلا قبل أن أعرض عليه أول قصة قصيرة قصيرة كتبتها. أكد لي أملك موهبة حقيقية تحتاج لتدريب وإصرار.

وجدت نفسي مع الوقت قريبا من أي أتحدث معه ببساطة وتلقائية أقول له ما كان يتعذر قوله من قبل، أعبر له عن رغبتني في الذهاب إلى السينما، في مقابلة أصدقائي، في لعب كرة القدم في الملعب المجاور للمنزل، لم تواتني الشجاعة لأطلب منه موافقته على صحبة بنت الجيران لأتسامر معها ونحن جالسان على شاطئ "الشاطبي".

خل موعد آخر درس في آخر عام دراسي "الثانوية العامة" حلت لحظة فراق أبوية مؤلمة، لم أحتمل جزعي فبكيت بجرقة، احتضنني بجمرة. ربت على ظهري بعطف قدم لي منديلا أجفف به دموعي، لم تكن قد اخترعت بعد المناديل الورقية، قال لي بتشجيع: أنا في انتظار ما سوف تكتبه من قصص، وعدته أن أكون عند حسن ظنه، بدت اللحظة لحظة ميلاد مشروع كاتب، هو بالتأكيد صاحب الفضل في هذه الولادة إن تحققت. حرصت زوجته على توديعي في نهاية الدرس الأخير، بدت سعيد وهي تجاذبني أطراف الحديث، قدمت لي حافظة كتب، كهديّة من أم لابنها نصحتني بالمتابعة والاجتهاد والتفوق.

حانت لحظة الوداع، أوصلني الأستاذ محيي حتى باب شقته. حاولت تقبيل يده فسحبها من بين طفي وهو يستغفر الله، خطرت لي فكرة طارئة، لم تحظر على بالي من قبل، قلت :

- لم تعرفني بأبنائك.. هل تسمح لي بأن أعرف عليهم؟

طأطأ رأسه . صمت قليلا . شرد طويلا، رمقني بنظرة كابية حزينة، أدركت أنها تخفي شيئا، لا يستحب الإعلان عنه، قال لي بمودة بالغة: "دعني أراك بانتظام أثناء الإجازة.. انتظر زيارتك كلما سنحت لك فرصة".

انتهزت فرصة موالية، كان أبي قد دعاني لمشاركته في سماع قصيدة أم كلثوم "ولد الهدى فالكائنات ضياء" التي تذاع علي بالراديو في حفلتها الشهرية، كانت المودة قد قطعت شوطا طويلا بيني وبين أبي، ما إن انتهت الوصلة حتى سألت أبي عما إذا كان للأستاذ "محيي" أبناء.

– لماذا تسأل ؟

– لم ألاحظ وجود أبناء في منزله.

– هو فعلا ليس له أبناء.

أصابني ذهول غامض. انتظرتني أبي حتى أفيق ممن شرودي، قال بجمحة لم أعيها من قبل:

– أردت أن أعوضك عما ينقصك، وأعوض الأستاذ محيي عما ينقصه.

طلبت توضيحا لهذه الجملة المركبة، فعاد أبي يقول:

– كان هناك ما يفصلني عنك، فرأيت في الأستاذ "محيي" بديلا لي.. وكان الأستاذ "محيي" في حاجة للتعبير عن أبوة مفقودة.

مرت سنوات حتى جاء ذلك اليوم الموعود بالحزن والشجن، لبس أبي رابطة العنق السوداء وأستعد لمغادرة المنزل، بعد أن أبلغني بوفاة

الأستاذ "محيي"، وإنه ذاهب إلى للمشاركة في الجنازة، لم أتردد لحظة في مصاحبة أبي وأنا أبكي بمرارة صممت على مصاحبة الجثمان حتى تم إيداعه في مثواه الأخير، جلست وحدي طويلا بجوار فوهة القبر المسدودة، حيث تحولت الثوابي والدقائل إلى دهر مديد، لم أشك لحظة في أن وجه الراحل يحمل نفس الملامح المتناسقة الهادئة المسترخية.

مرت سنوات أخرى قبل أن أنجز مجموعتي القصصية الأولى التي كانت على وشك الإصدار، قررت أن يكون الإهداء للأستاذ "محيي بدران" على سبيل الوفاء وحفظه الجميل.

إلى سر الأستاذ "محيي بدران" .. إلى من علمني الحب وأسرار الحروف والكلمات .. إلى صاحب الفضل في إصدار هذ المجموعة القصصية".

## ياسين الزحرتي

لم أشعر أنني دققت النظر ف ملامح وجه العريف ياسين الزحرتي حامل جهاز اللاسلكي، الذي كان يرافقني كظلي في مركز الملاحظة فوق قمة جبل عتاقة، بحكم أنه يحمل وسيلة اتصالي بالرؤساء والمرءوسين، لم أتبين ملامح وجهه منذ ثمانية عشر يوماً، منذ الساعة الثانية من ظهر يوم 6 أكتوبر 1973، حتى الساعة الثانية عشر من ظهر يوم 22 أكتوبر من نفس العام.

كانت هناك جبهة مشتعلة بشقى أشكال وأنواع القتال شرق قناة السويسن العبور ثم تدمير خط بارليف، ثم التوغل شرقاً نحو مضائق سيناء ثم صد الهجوم المضادة الشرسة، ثم ثغرة "الديفرسوار" وحصار مدينة السويس ثم وقف إطلاق النار ظهر يوم 22 أكتوبر 73، لأظن أن العريف ياسين قد فهم شيئاً، عندما وضعت سماعة التليفون، وأبلغت الرائد صبري "رئيس العمليات"، ببلاغ وقف إطلاق النار، الذي وصلني عبر التليفون لا أظن أن ياسين قد فهم شيئاً عندما سألتني الرائد صبري: "خل كانت حرب تحرير أم حرب تحريك لوضع تجمد قرابة ستة أعوام؟!"

لم أكن قد تخلت عن شريط الحبوب المعدئة الثاوي في جيب "الأقروول" منذ عام 1967، خلعت حذائي لأول مرة منذ السادس من

أكتوبر، شمت رائحة العفن المتصاعدة من قدمي المتورمتين، سارع ياسين بإحضار زمزية ماء وغسل قدمي، كان يفعل ذلك بمحبة وعن طيب خاطر، ولم يكن هناك ما يجبره على فعل ذلك كنا أعامله كأحد أبنائي، نتعايش معا أكثر مما أتعايش مع أبنائي، يغسل ملابسي ويعد لي الطعام وهو غير مكلف رسميا بذلك لا أظن قد فهم شيئا وأنا أقول لصبري في لحظة استشراف مبكرة، يبدو أننا نعيش لحظة فارقة بين زمان مضى وزمن قادم".

أخذت أتأمل وجه العريف ياسين في لحظة فراغ موحشة، وكأني أشعر بوجوده لأول مرة منذ 18 يوما، بدوت كأني أعيد قراءة كينونته، كينونة كائن يوهم بأنه لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم وليس له أي دخل في أي شيء، لم أستطيع قراءة أي رد فعل لياسين وأنا أقول لصبري: "حان الآن موعد الهبوط من عتاقة"، لم يبد عليه أي انفعال بعد أن قال صبري "ربما نضطر لصعود هذا الجبل مرة أخرى ذات يوم قادم"، ربما كان الانفعال من وجهة نظره مخالف للأوامر والتقاليد العسكرية.

ياسين ينحدر من سلالة قوى الشعب العاملة، يشارك في تكاليف الحرب. لا يحيد عن مبدأ الطاعة العمياء.. حاضر يا فندم.. تمام يا أفندم.. فكان عريضان.. أسنان صفراء بسبب التدخين وكثرة شرب الشاي الثقيل.. بشرة جافة خشني بسبب نقص فيتامين "أ".. عين تخزن الصور ولا ترى ما وراء الصور.. إذن تسمع الأوامر بالنهار وتنفذها بحذافيرها، وآيات الذكر الحكيم بالليل من مذياع قديم متهالك، حصل على شهادة الإعدادية بعد أن تكرر رسوبه ثلاث مرات، يستوعب بالكاد مغزى عناوين كثيرة كانت تقال له في دروس التوجيه المعنوي مثل: القومية

العربية، الاشتراكية، الاستعمار وأعوان الاستعمار، وتحالف قوى الشعب العاملة، لم يكن من نوعية الجند الذين عبروا وحطموا خط بارليف، الجنود العابرون من ذوي المؤهلات العليا الذين تعلموا في الجامعات في زمن الثورة بالجان، لم يستكمل ياسين تعليمه لأسباب خاصة، توفي أبوه وهو في الثالثة عشر من عمره، فكان عليه أن يعول أسرته، أمه وثلاث بنات، سألته ماذا سيفعل بعد تسريحه من الجيش قال إنه سيزرع ما تبقى من الفدادين الخمسة التي حصل عليها ابوه بموجب قانون تحديد الملكية الذي صدر بعد شهر من قيام الثورة، سألته هل يفكر في الزواج؟ قال بلا تردد: "ليس قبل أن تتزوج إخواتي البنات الثلاث.. سألته عما إذا كان عضوا في الاتحاد الاشتراكي" أجاب بأنه لم يفهم ما قصد إليه. استمر تعامله مع ياسين الزحري، حاملا لجهاز اللاسلكي قرابة سبع سنوات، منذ عبرت بوحدتي قناة السويس، منذ إعلان حالة التعبئة قبل حرب يونيو 67، لأتمركز في منطقة "الختمية" قرب العريش، ياسين جندي ذكي نشيط لما، يعتني بالجهاز أكثر من عنايته بنفسه. يذكرني بالتوقيات الهامة قيل حلولها، كان ما كان من أمر النكسة، وبدأ الانسحاب، طويت مع إبراهيم طريف الألم والمرارة، شربنا بولنا، أكلنا سويا عيدان النباتات الصحراوية الجافة، نمنا في الطل، تورمت الأقدام، عدنا إلى القاهرة أعيد تشكيل الوحدة التي أصبحت قائدا لها تمركزت في موقعي الجديد غرب مدينة السويس، حفرنا الموقع الجديد بالأظافر والأنياب، تحملنا نيران المدفعية وقنابل الطائرات طوال حرب الاستنزاف، عانيت من إعياء شديد، رفضت الانتقال إلى المستشفى

الميداني. إبراهيم يقدم لي الدواء في مواعيده، يغريني بالطعام المسلوق، يقول كلمات بسيطة وأمثلة ريفية طيبة.

حل موعد العبور التاريخي الحاسم في السادس من أكتوبر، كنت قائدا للوحدة التي تدافع عن مركز قيادة الجيش الثالث الميداني، ضد أي هجوم أرضي أو إررار جوي، تخندق في مركز القيادة الأمامي فوق قمة جبل عتاقة، تابعت عبور المشاة بالقوارب المطاطية، ونصب الكباري وفتح الثغرات في جدار "بارليف" وعبور الدبابات والعربات المصفحة أرسلت البلاغات.. بلاغا تلو بلاغ، ياسين يتابع بلاغاتي وأوامري، يحفظها ويذكرني بالتوقيتات الهامة قبل حلولها، أحيان ما يأخذ التمامات من المرؤوسين نيالة عني، ويبلغهم بالتعليمات التي أكلفه بإبلاغها.

حل وقف إطلاق النار، قام السلاح بمهمته، وحن موعد الجلوس إلى مائدة المفاوضات كنت قد أصبت بشظية "نافذة" في ساقى الأيسر أثناء غارة جوية على مركز القيادة استجاب قائد الجيش لرغبتى في الخدمة بالإسكندرية "بلدي" لأرعى أسرتى التي ابتعدت عنها قرابة ثمان سنوات وصل أمر النقل، تنبعت إلى تلك الورقة المرشوقة في حافظة سجل العمليات، كانت بمثابة خطاب من ياسين وقع نظري على الجملة الأخيرة من الخطاب: "ليكن في معلوم أنى عايز أخدم معاك فى الإسكندرية". وأخذت ياسين معى إلى وحدتى الجديدة بالإسكندرية.

لم يمض وقت طويل حتى حان موعد تسريح دفعة من الجنود بعد انتهاء خدمته.

كان ياسين ضمن هذه الدفعة، شاركت في حفل الوداع، بدا ياسين نشيطا كعادته.. ودودا عطوف.. يوزع الشاي على الجنود.. يوزع "الجاتو" بلا تفرقة بين الرتب.. يطلق نكته هنا وقفشة هناك.. يجني الكثير من البسمات، وبريق رضا العيون كان قد قام بواجبه وهو يشعر الآن بأنه قد أصبح حرا طليقا، متخففا من ضغط الأوامر والتعليمات.

حضر ياسين إلى مكتبي ليودعني وداعا خاصا، تجاذبني شعور أن لحظة الوداع هذه التي تبدو موقفا حياتيا عاديا، وشعور جمعي بياسين تحت وابل القصف والنيران وتناثر أشلاء الشهداء.. ودعت ياسين بكل ما أكنه له من تقدير واحترام، ذكرني بأنه يحتفظ بعنواني داخل حافظته، التي لم يغيرها، منذ أن كانت في جيب "الأفرول" أيام إعلان التعبئة لحرب يونيو 1967.

توقف ياسين عند باب المكتب، وهو في طريقه إلى الانصراف الأخير، استدار بهدوء ليرمقني بنظرة جديدة، نظرة إنسان استعاد حريته، ولم يندم على ما فات، قال لي بشجاعة خالية من أي حرج: على فكرة يا فندم.. أنا كنا فاهم كل حاجة.. واع بكل اللي جرى.. فهمت أشياء كثيرة من حديثك مع زملائك في محبأك تحت الأرض.. قلبي معك.. ربنا يوفقكم"، عندما قلت له بأنه لم يعطني إحساسا، ولو مرة واحدة، بأنه يفهم، قال باقتضاب مذهل، وقبل أن يغيبه الباب.

– ليس مطلوباً من أن أتكلم.

## وحيد ثابت

استوقفني وأنا خارج من المستشفى العسكري بالإسكندرية  
بادلني السلام والأحضان، هو يعرفني بالتأكيد، كان قد  
سقط من ذاكرتي تظاهرت بأنني أعرفه، فبالغت في الترحيب  
به، وأنا أمسك بكيس العلاج الشهري لمرضى السكر  
والقلب بيد من حديد، قال لي بظرف وعشم: أنت لا  
تذكرني يا كذاب". أخفيت حرجي بضحكة صاحبة وجاهلة  
في نفس الوقت.

عاد يقول: إزيك يا طلعت يا راضي.. اللواء الخامس.. زملاء في النكسة  
وحرب أكتوبر".

استعادت ذاكرتي ملامح وجهه، ولم تستعد اسمه. عدت أحتضنه  
بحماس وأطبطب على ظهره، أدرك أنني لا أذكر اسمه، فأعفاني من الحرج  
وهو يقول: وحيد.. وحيد ثابت يا نذل "عدت أحبيه وأغرقه بالسلامات،  
وأنا ألاحظ كيس الدواء الذي يحمله سألته بمودة.

– ما هي أمراضك الآن يا زميل السلاح؟

– الروماتزم والعمود الفقري والبروستاتا.. والبقية تأتي.

استعدنا ذكريات ميدانية كثيرة معارك رفح والعريش وأبو عجيلة

والسويس.

عاد يقول لي بحزن حقيقي: لك عندي خبر مؤسف.. البقية في حياتك.. مات زميلنا فوزي سليمان منذ أسبوع.. أجرى عملية قلب مفتوح.. غيروا له شريانا وكان يحتاج لتغيير ثلاثة شرايين، تألمت كثيرا. كنا نحمل إعجابا لا حد له بشجاعة وجرأة فوزي سليمان دمرت وحدته عشر دبابات "ميركافا" إسرائيلية بعد العبور المدهش لقناة السويس في حرب أكتوبر، عاد يسألني ماذا أفعل في هذه الأيام، قلت له ببساطة: أكتب قصص وروايات لا يقرأها كثيرون". سألته بدوري عما يفعله هو الآن: عندي محل "نت كافيه".. زبائني من الشباب يستحضرون ألعاب التسلية والأفلام الإباحية.. ونادرا ما يستحضرون مواقع المعلومات والأبحاث.

دعاني لنجلس قليلا في محل "فينوس" القريب من لا حظنا ونحن ندخل المحل وجود عربة مأكولات متواضعة بجوار الرصيف، ومكتوب عليها "سندوتشات الأقصى" استغرقنا في ضحك ممرور، وقال وحيد ثابت: "لم يبق من الأقصى سوى سندوتشات".

استدرجنا الحديث إلى زملاء السلاح اكتشفنا أن معظمهم قد فارق الحياة.. منهم من استشهد ومنهم من توفي فوق سرير مستشفى أو سرير الزوجية، رجوته أن نتحدث في أشياء مفرحة فقال لي بظرف: أعاكس الفتيات في الطريق كلما حانت فرثة.. أشعر أنني عدت شابا مراهقا.. أطلب المحبة والمشاعلة وليس أكثر من ذلك"، سألني عما إذا كنت أحمل بين جوانحي حلما من الأحلام، فقلت له بهدوء مرعب: "أتمنى لو شاركت في الانتفاضة الفلسكينية أو المقاومة اللبنانية" قال لي بعتاب مشكوك فيه:

"يبدو أنك لا تؤمن باستراتيجية السلام والاستقرار"، عاد يقول لي بتأنيب لا يخلو من مزاح: "عليك اللعنة".

هكذا تحولت زمالة السلاح، بعد فترة انقطاع طويل، إلى صحبة وصداقة في الوقت الضائع، أصبحنا نلتقي من آن لآخر في مقهى أو "كافيتريا" "والى" المطلة على البحر، قال لي ذات مساء وهو يتأمل زرقة البحر العالي من الأمواج الراقدة في صمت "من أسطول يوليوس قيصر إلى أسطول نابليون إلى الأسطول الإنجليزي إلى الضفادع الإسرائيلية في حرب أكتوبر، يا قلبي لا تحزن"، قلت له ببراءة: "البحر الآن يشارك في استراتيجية السلام والاستقرار".

وفي لقاء آخر سألني عما أكتبه لقرائي في قصصي ورواياتي، كنا متوجهين إلى المستشفى لاستلام العلاج الشهري الذي لن يبوقف إلا بتوقف الحياة، قلت له باقتضاب حتى لا أشغله بما لا يهمله: أكتب الآن روايات "عبثية"، استغرق في الضحك وأصر على معرفة معنى كلمة "عبثية" رغبت في تبسيط المعنى فقلت له: عندما تبكي أمور الحياة، ويختلط الحق بالباطل، يفتقد الناس أهدافا تجعل لحياتهم معنى وقيمة، فيعبر الكاتب عما يشعر به الناس وعاد يقول لي وهو يقهقه حتى دمعت عيناه: "وجودنا بالمستشفى الآن فرصة لعرض نفسك على طبيب أمراض عقلية.. لولا أنك زميل سلاح وصديق لقطعت صلتي بك.

بدأنا نتزاور عائليا تعرفت زوجتي على زوجته، كثر بيننا الحديث عن الأحوال العائلية، كان يعيش وحده مع زوجته سألني عن أخبار أبنائي أثناء

جلسة عائلية في منزلي، فعدت بدوري أسأله عن أبنائه.. بدا عليه الحزن وهو يقول: استهد ابني الأكبر بعد أن تطوع لمقاتلة الملاحدة الروس في أفغانستان.. اشتغل ابني الثاني في تجارة الأسمت، وكان يبيعه للتجار الفلسطينيين، الذين كانوا يبيعونه للتجار الإسرائيليين لبناء الجدار العزل.. ابنتي تعمل مدرسة بمدرسة أبي قير الحكومية، وتصرف مرتبها في المواصلات والمصروف الشخصي لأولادها، استغرق في صمت شارد وعاد يقول لي بمرارة: نصحتها بالاستقالة والتفرغ لتربية أولادها فقالت إنها تخشى أن يستغني صاحب شركة "فرجبالو" عن زوجها ذات يوم، فلا يصبح هناك طعام وكساء.

اتصلت بي زوجته ذات يوم فهتمت منها أن وحيد ثابت نقل في جوف الليل إلى المستشفى بعد أن عانى من آلام حادة لا تحتمل، ذهبت على الفور إلى المستشفى. لم يعد العلاج الشهري يكفي لمواصلة الحياة، علمت من الطبيب أنه يعاني من مرض خبيث استشرى في جسده، وليس هناك أمل في إنقاذه والمسألة مسألة أسابيع أو شهور، جلست بجوار سريريه بالمستشفى، ولا أجد ما أقول، غابت الضحكة والنكتة والقفشة وذكريات زمالة السلاح. بدا في حالة تقبل واستسلام للمصير، كانت طاقته الإيمانية في أحسن حالاتها، بدا هادئاً هدوء اليأس الذي تساوت عنده كل الأشياء، قال لي بلهجة لا تخلو من سخرية واستخفاف: ألا تفكر في كتابة قصة حياتي في رواية عبثية؟ ولم أجد ما أقوله لأعلق على قوله الساخر، عاد يقول بمزيد من الهدوء والطمأنينة: راجعت حياتي خلال الأيام القليلة الماضية، فهتمت معنى كلمة العبثية التي حدثني عنها ذات يوم.. المرض

الخبيث يجعلك تفكر فيما لم تكن تفكر فيه. مررت بثلاثة أيام قاسية وعصبية، قبل أن أسير في جنازة وحيد ثابت. فكرت طويلا أثناء عودتي من الجنازة، أخذت أبحث عن مضمون القصة التي أشرع في كتابتها عن حياة وحيد ثابت.. وضعت عنوانا مبدئيا للقصة، على أن أقوم بمراجعته وتمحيصه بعد ذلك: "لم يستشهد في حروب أربعة، ومات محسورا في حقبة استراتيجية السلام والاستقرار".



## سمير ذهب

ربطني به صلة قرابة، منذ الشباب الباكر، اعتبرته علاقة عابرة، لا تتعدى حدود القرابة، ولا ترتقي لدرجة الصداقة، ومع ذلك فقد كان حريصا على توطيد علاقته بي، ينتهز كل فرشة أو مناسبة ليجمعنا مجلس يتيم، لانفع من ولا ضرر..

لم يكن عنده شيء يمكن أن يقوله، ولكنه مستمع جيد، لا يمل الاستماع لساعت طوال، ولا يوحى لك بأنه استوعب ما سمع، أو أن قريحته جادت عليه بتعليق ينم عن وعي بموضوع الحديث أصبحت أتحمّل عبئا كبيرا في علاقتي به، أضيّق أحيانا كثيرة كان علي أن أتكلم بلا انقطاع، وكان عليه أن يسمع بلا انقطاع، ويقرر في نهاية الحديث موافقته التامة على كل ما قلت، ولا ينسى أن يذكرني بأني شخص منفتح الذهن، ومثقف، واع، أفهم في شئون دنيانا وأتابع ما يجره في العالم، وإني أهم وأعز صديق له في حياته، وإن أغلى أمانيه أن أواظب علي الصلاة، حتى يجمعنا الله في جنة النعيم.. لم أعد أملك إلا أن أبالغ في مجاملته، وإظهار حماس مصطنع كلما قابلته، وإبداء فرحة ليس لها دوافع حقيقية.

أصبحت أتابع أخباره بفضول كبير لعلني أستطيع أن أكون فكرة واضحة عن شخصيته، لا أذكر أنه قد اتخذ قرارا واحدا بكامل جريبه وبملاء إرادته. التحق بكلية الهندسة لن مجموع درجاته في الثانوية العامة

سمح له بذلك. عمل بهيئة النقل بالإسكندرية لأنها الجهة الوحيدة التي قبلت تعيينه بها، أصبح المقيم الوحيد مع أبيه وأمه في بيت الأسرة بعد زواج إخوته واخواته، انحصرت حياته في عمل تقليدي، لا يحقق طموحا ذا ملامح واضحة.. مثلما اقتصرته حياته على مجموعة الأصدقاء تجمعه بهم مجالس الأُنس والسمر كان طريما معهم إلى حد السفه، يستهلك مرتبه الشهري في الأيام الخمسة الأولى من كل شهر، ثم يعيش ضيفا على أبيه باقي أيام الشهر، ضيف لا مفر من استضافته، ابن مبذر واب متساهل.

لم يكن في حياة سمير ذهب سوى صديق واحد أوحد، يتصف بالإخلاص والجديّة هو المهندس همام أحمد، الذي قرر أن يؤمن حياة سمير في ظروف حرجة، عرض عليه أن يشاركه في إنشاء مصنع صغير لإنتاج البويات الخاصة بأعمال البناء، برأس المال وسمير بالجهد والخبرة، خطأ المشروع خطواته الأولى بنجاح، أبدى سمير حماسا منقطع النظير، لم يكن يمتلك القدرة على الالتزام والمثابرة، وتنمية الاستعداد المطلوب، واكتساب خبرة السوق وآلياته، هكذا فتر حماسه وقدرته على المواصلة، لم تتوفر لديه رغبة داخلية حافزة لتحقيق النجاح وإثبات الوجود فشل المشروع وذهب كل طرف إلى حال سبيله، وبقيت ملامح صداقة قديمة، تعيش على ذكريات باهتة، وتزجية أوقات الفراغ، وتبادل أخبار اجتماعية عامة.

مضت بعض سنوات تصورت خلالها أن سمير ذهب لم يفكر إطلاقا في الزواج وتكوين أسرة مستقلة رسب في روعي أن سمير ليس مهينا ولا مستعدا لتبني أي مشروع عملي أو اجتماعي يتصف بالمسؤولية والالتزام،

ويخلق لحياته معنى حقيقيا، يحقق له دورا بارزا في الحياة العامة، أو دورا اجتماعيا يتمثل في تكوين أسرة، ثم جائي هذا الخبر المدهش من صديق مشترك بيننا، علمت من الصديق أن سمير ذهب قد تزوج من امرأة مطلقة منذ شهورن ولم يعلن عن هذا الزواج، وهو يلتقي بها في بيتها دون أن يقطع صلته ببيت أبيه، ولم يكن يرى في هذه العلاقة ما يعيبها، فهي قائمة على سنة الله ورسوله، ولا ينقصها سوى الإعلان عنها، وكان للكتمان أسبابه الوجيئة من وجهة نظره. جمعه بما حب عارم، عجز عن مقاومته. امرأة تلقائية بسيطة ذات فطرة سليمة ورغبات جامحة تؤكد مشاعر الرجولة مع الالتزام بعلاقة شرعية، ولم يكن يعيبها سوى أنها من أسرة متواضعة، لا تسمع له اجتماعيا بالإعلان عن علاقته الزوجية، عندما احترت طويلا أمام هذه المغامرة العاطفية التي تبدو محسوبة بحسابات خاصة، توصلت إلى الصديق المشترك أن يشرح لي أبعاد هذه العلاقة فقال لي بفهم العارف بطبيعة سمير:

- سمير شخص مبذر ولا يملك إمكانية تدبير شقة وتكاليف زواج.. نجحت بهيجة في الاستيلاء على مشاعره.. لم يريد أن يغضب الله.. عرضت عليه زواجا شرعيا دون أن يتكبد مليما واحدا.. وافق العرض هواه.. سمير لا يملك إرادة فعل حقيقة.. كان قراره بمثابة رد فعل لإرادة "بهيجة" لم يكن يملك إرادة وأمكانيات زواج طبيعي متعارف عليه.

ومرور الوقت لم يكن هناك مفر من تنفضه العلاقة صارحها سمير بضرورة الانفصال تجنبنا لفضيحة اجتماعية، لم يكن قادرا على تطليقها دون

موافقتها ورضائها، كان يفتقد شجاعة المواجهة، بدأ يمر بمحنة طاحنة شعر بأنه يمر بمرض نفسي غامض، وإنه في حاجة إلى من يخلّثه من عفريت من الجن استولى على عقله وروحه، ولاقبل له به، وجد نفسه متوحدا مع أزمته المرضية، حتى أصبح محل عطف واشفاق الجميع، لم يقتنع بتشخيص أكثر من طبيب نفسي، وبالأدوية التي كانت توصف لحالته، استجاب أخيرا لنصيحة صديق متدين، عرض عليه زيارة الحاج "حسنين" وهو شيخ طريقة معروف، يملك علاجا سحريا لطرد العفريب الذي استولى على روح سمير، ويسعى حثيثا لتدميره بعد إفساد حياته.

حضر سمير عدة جلسات في حضرة الحاج حسنين، حيث تصاعدت الأبخرة وسحب الدهان، مثلما تصاعدت الدعوات والابتهالات والتعاويذ الغامضة، اختتمت الجلسات بحجاب سري يخفيه سمير تحت ملابسه الداخلية، وزجاجة سائل غير مغروف مكوناته، يرش سمير بعض قطرات منه عند عتبة البيت كل مساء، وقد تفاضى حسنين أجورا خيالية باهظة، اضطرت سمير إلى الاستدانة دون أن يفطر في كيفية سداد الدين، عجزت "بهيجة" عن فهم هذه الحالة المستعصية وكيفية التعامل معها، ساءت حالتها النفسية والصحية، زادت وطأة أمراض السكر والقلب والأعصاب، لم يمر وقت طويل حتى وافتها المنية.

ضاعفت صدمة الوفاة من معاناة سمير وزادت من عذابات بعض الوقت، وما لبث أن تحول حادث الوفاة إلى منحرج غير مقصود لإنفراج الأزمة، تحرر سمير أخيرا من وطأة ارتباط تحول مع الوقت إلى قيد أدبي

واجتماعي خانق، أصابه بخالة شلل تام، هكذا تكفل القدر بحل أزمة استعصت على الحل في غياب إرادة حرة ومشينة قادرة.

بدا سمير يتماسك ويستعيد الكثير من توازناته، بسبب مساندة سكرتيرته الخاصة "هناء" فتاة جميلة ورشيقة تعج بالحيوية، وبذكاء اجتماعي يفوق الوصف، تصغر سمير بثلاثين عاما، ترى فيه مثلا أعلى لأب وصديق ورئيس عمل، وزاد من ارتباطها به سوء علاقتها بزوجها، الذي رفض تطليقها، والتنازل لها عن ابنتها، وارتبط بعلاقة غير شرعية مع صديقة لها، تحولت هناء مع الوقت إلى أكثر من سند وصديق وشريكة حياة يومية أصبحت مرجعا لا يمكن الاستغناء عنه في مجال العمل، تملك قدرة مذهلة علي حل المشاكل والخروج من الأزمات مع رؤساء سمير ومرؤوسيه، أصبحت تحكي له عن متاعبها العائلية، بادها حكايات بحكايات، فأخذ يحدثها عن متاعبه النفسية، ومؤمرات الجني التي تخلق له متاعب لا قبل له بها، لم يكن من السهل أن تتحول العلاقة إلى علاقة زواج، زوج هناء يرفض الطلاق ويساومها با رحمة، لاسيما بعد ما اكتشف ارتباطها العطفى، بسمير، الذي تحولت علاقتها به إلى علاقة صداقة حميمة، وحب جارف، لا يؤدي إلى زواج ولا إلى إشباع جنسي غير مشروع.

بدا سمير متقبلا لارتباطه الإنساني المحجم بهناء، لم يكن يطمع في أكثر من ذلك، في ظل عجزه عن تكوين أسرة، تكلفه ملا يحتمل من التزامات ومسئوليات، لم تشأ الظروف أن يستمر الوضع على ما هو عليه بدأ يعاني من ضغوط ملحة من أبيه وأمه وإخوته تدعوه إلى الزواج بعد أن وصل إلى سن الخمسين، مع وعد منهم بتدبير الشقة وتغطية تكاليف الزواج لم يجد

مفرا من الرضوخ لألحاح الأسرة، بعد أن اختاروا له الزوجة المناسبة أيضا، التي كانت تعمل بقسم الميزانية في البنك الأهلي بالإسكندرية، والتي تأخر عنها قطار الزواج لظروف خاصة. هكذا تم ترتيب لقاء بينهما في نادي سبورتنج بدت "سها" متقبلة لشخصية سمير ارتاحت لبساطته ودماثة خلقه وهدوءه، العجيب الذي لا يشي بخلق متاعب أو مشاكل، ويبدو متنازلا عن أي شروط مسبقة، ولا يوحى بأنه صاحب مطالب خاصة، ولم يزعجها بأنه لا يشتري صحيفة يومية، ولا ينشغل بشؤون القتل والتعذيب اليومي الذي يملأ شاشات الفضائيا بال انقطاع، لم يزعجها أنه يفتقد الحد الأدنى من الخبرات الاجتماعية والحياتية التي تساهم في تكوين أسرة قادرة على التواصل والتفاعل مع غيرها من الأسر يبدو أنه قررت أن تقبل الفرصة الساخنة الأخيرة لمشروع زواج، ويبدو أنه قد قبل نفس الفرصة.

لم تمر شهور قليلة على الزواج حتى بدأت تتصاعد المتاعب والمشاكل إلى حد لم يخطر على بال، شعرت "سها" بأنه تعيش مع خيال رجل. تتحمل كل مسؤوليات والتزامات البيت. لا تحظى بأي رد إيجابي على أي سؤال. لا تجد استجابة حقيقية لأي مجاملة، اكتشفت أن سمير يخفي عجزه عن مواجهة الحياة بشكل من أشكال النفاق المصطنع الذي لا يحمل مشاعر حقيقية، ولا قدرة على إنجاز شيء ما، بدا أمامها كطفل كبير، يبحث عن أم مسئولة عنه طوال الوقت، وليس عنده ما يقدمه سوى كلام منمق ومظهر أنيق وبعض التصرفات الذوقية المتحذلقة، تضاعفت الأزمات مع ظهور الابن الوحيد لهما، تحملت سها كل مطالبه ومسئولياته في حين انشغل سمير بتبديد نصف مرتبه الشهري في مجاملة أصدقائه

ومعارفه لتحقيق نوع من التوافق الاجتماعي الكاذب، وتأكيد ذات ليس لها قوام تستند عليه. ثم حدث الانفجار أرادت سها أن تعرف حقيقة الزوج الذي تتعامل معه، إن كان هناك نوع من أنواع التعامل، أخذت تتحرى وتساءل وتجمع المعلومات عن شخص جمعتهابه عشرة عشر سنوات، لا هي علاقة زوجية اليفة، ولا هي صداقة، ولا هي زمالة عمل، ولا هي قرابة، هي أي شيء إلا أن تكون كذلك، ظلت تتقرب إلى المقربين منع في عمله، تسألهم عن طباعه وأحواله، تتعرف على أصدقائه وتتجاوز معهم، تتناقش مع إخوته بصراحة وجرأة، إلى أن اكتشفت ما كان خافيا عنها، علمت أنه كان متزوجا من بهيجة، المرحومة بهيجة، ولما أنكر هذه الزيجة اطلعت على صورة من عقد زواجه بها اكتشفت أنه مرتبط بعلاقة ودودة بسكرتيرته "سها"، ولم تمنع نفسها من سوء الظن بالعلاقة عندما علمت بسوء علاقة سها بزوجها، وإثما شبه منفصلين، هكذا لم يعد أمام هناء سوي طلب الطلاق من سمير، رفضت توسلاته وتوسلات الأقارب والأصدقاء، لم تجد مبررا واحدا لمواصلة علاقة زوجية خالية من الأمانة والصراحة والصدق والشعور بالمسئولية والالتزام بالواجبات الأسرية حتى لو كان ذلك من أجل ابنها صدقي.

لم تعد هناك سوى محاولة أخيرة لإصلاح ذات البين، طلب سمير مقابليتي على انفراد حكى لي كل أبعاد الأزمة، بصراحة تامة، اعترف بكل أخطائه، دون أن يعترف بعجزه عن ممارسة الحياة بشكل عادي وطبيعي، طلب من أن أقوم بوساطة أخيرة، تعتمد على ثقته في خبرتي وقدرتي على الإقناع فإما أن ينصلح الحال، أو يذهب كل إلى حال سبيله، لم أملك إلا

القيام بهذه الوساطة قلت لهؤلاء إنها صاحبة حق في طلب الانفصال، ولكن ابنتها صدقي هو الذي سيدفع ثمن هذه القطيعة، وإنما ستندم طوال عمرها إذا تحطمت حياة صدقي وعاني من الأمراض.

ظللت أُلح على الأخطار التي ستحدق بصدقي، اقتضى من ذلك عدة جلسات وتدخلات من الأهل، أدت إلى تقبل ههنا لنوع من الزمالة الأخوية بينها وبين سمير في بيت واحد، وذلك من أجل خاطر صدقي ولا شيء سوى ذلك هكذا استمرت العلاقة على هذا الوضع الشاذ.

دارت الأيام وحالة سمير تسير من سيئ إلى أسوأ أُحيل إلى المعاش، لم يعد يجد ما يعمل، يذهب إلى النادي أو المقهى كل صباح، غاب الأصدقاء بحكم الظروف، لم يكن من عادة سمير أن يشتري صحيفة، أو يقرأ كتاباً أو يشاهد برنامجاً تلفزيونياً، ليست هناك قدرة حقيقية على القيام بعمل ما ليست هناك قدرة على ملء وقت الفراغ بشيء ما، حتى لو كن صحيفة.. المعاش لا يكفي لتحمل مسئوليات أسرة صغيرة، مكونة من زوجين وابن واحد.

كنت أنا الوحيد من معارف سمير الذي يتفهم ظروفه ويقدر أحواله، بحكم نشاطي الأدبي والصحفي، لم أشأ التخلي عنه، وأتركه لفراغ قاتل قد يؤدي به إلى مرض نفسي عضال، هو مهياً بحكم تكوينه الضعيف إلى التعرض لمثل ههنا المرض، وقد سبق له التعرض فريسة لهاجس قهري يتسلط الجن على عقله وإفساد حياته، حرص سمير على توطيد علاقته بي، وأن يكون بيننا تواصل يومي، في النادي أو المقهى أو تلفزيونياً، أراد أن يملأ

فراغ حياته بصحبتى ولم أشأ أن أخذه أو أتخلي عنه، أخذ يحكي لي بانتظام عما جرى له في حياته كأنه يجلس على كرسي اعتراف. لخص لي حياته بأنها سلسلة من الهزائم والإحباطات والكوارث والنكبات، حرص على أن يبدو حزينا متألما مكتئبا وهو يحكى، لم أكن أشعر بأنه حزين بحق بدا أنه يقوم بعمل تمثيلي مريع يرضي شيئا ما بداهله، لم يكن لديه أدنى شعور بالندم أو رغبة صادقة في تصحيح ما جرى وكان يواصل ملء زمن فراغ، لا بد من تعبئة مع حركات شهيق وزفير، ومع تناول بضعة أقراص من النعناع، وصدمني ذات يوم عندما صارحني بأن المسئول عن كل ماجرة له من كوارث ومصائب هو ثورة 23 يوليو 1952، أردت أن أعرف من بشغف مذهول كيف حدث ذلك. استخف بجهلي في البداية وقلة وعيى، ثم أخذ يشرح لي ما غفلت عنه. استولت عصابة منظمة على الحكم في البلاد، وخلعت الرئيس الشرعي للبلاد الملك فاروق، وهكذا غابت الشرعية المقدسة عن البلاد إلى الأبد ولو أن الرئيس محمد نجيب استطاع أن يقضي على هذه العصابة لنجح في إرساء شرعية جديدة كان يمكن تقبلها ولو على مضض، وعندما سألته عما يعرفه عن ثورة يوليو وما جرى من أحداث لتحقيق العدالة الاجتماعية وتحرير الشعوب من الاستعمار، قال لي إنه لا يشرفه أن يعرف ذلك، ومن العار أن يشغل نفسه بمثل هذه الأمور غير الشرعية، وقد ألح في نصحي بالتخلص من عملية غسيل المخ التي حدثت لي وانتهت بنكسة فظيعة وعندما حاولت أن أذكره بأن هناك إنجازات وهناك أيضا أخطاء، رمقني بامتعاض وقال لي بلهجة قاطعة: أنت ضحية مثل كل ضحايا الشرعية المفقودة.

أدركت في النهاية أن سمير قد دخل في حالة غيبوبة دائمة، لم يعد له منها مخرج، غال العقل والمنطق، غاب معني أي شيء، يمكن أن يخلق للحياة معني ما. لم يعد هناك سوى قلب يدق، رئة تتنفس ومعدة تهضم القليل من الطعام وساعات قليلة يختلط فيها النوم بالأرق. وتبرير غامض بأن ثورة يوليو 52 هي المسئولة عن كل ما جرى له وأن غيبوبة بشرية من فعل الجن والشياطين قد قطعت صلته تماما بالناس والأحياء والحياة.

## فرجينا كارلي

عرفتها مدرسة لي بالمركز الثقافي الأمريكي بالإسكندرية، نقلني مدير المركز إلى فصلها بعد أن تعثرت في تعلم الإنجليزية، باللهجة الأمريكية في فصل آخر ومع مدرسة أخرى، جذبتني ملامحها السكسونية الجميلة، العيون الزرقاء والشعر الأصفر، والشرة الناصعة البياض،

رشاقة القوام والصوت الهادىء الذي يقترّب من الوشوشة، الحروف واضحة تشبه الدندنة، الكلمات لها جرس موسيقي يشيع الطمأنينة في النفس هناك علاقة سحرية بين أصبع "الطبشور" وأصابع كفها، تحركاته الرشيقة تخفي طياتها مشروع راقصة باليه، انجذبت إليها بلا تردد أو خوف من المجهول، رأيت فيها فتاة أحلامي التي كنت أبحث عنها طوال عمري، أغلب الظن أنها لا تزيد عن الخامسة والثلاثين من عمرها، وأنا في الخامسة والخمسين لا أريدها أن تغيب عن نظري أعجل موعد بدء الدرس.

كيف تقوم بيننا علاقة؟ لا تكفيني علاقة التلميذ بمدرسته لا أقبل جبا أفلاطونيا يعيش في الخيال، أريد أن ألمس أصابعها أربت على كتفها، أطبطب على ظهرها، أحتضنها وأنا أقود سيارتي. ألمس شفيتها بسبابتي على الأقل.

لم يبق لي سوى أيام على نهاية الدورة الدراسية بالمركز الثقافي الأمريكي سأسافر بعد شهر إلى أمريكا مع وفد من الأدباء المصريين، بناء

على دعوة من وكالة الإعلام الأمريكية، لتوطيد العلاقات الثقافية بين البلدين، بعد أن تبادلت مصر السفراء مع إسرائيل. وحل موعد الامتحان امتحان نهاية الدورة، حرصت علي الجلوس خلق المنضدة الملاصقة لمكتبها في صدر القاعة، وزع "فرجينيا" أوراق الأسئلة، أخذت أرمقها من وقت لآخر وأنا أجيب على الأسئلة، استجمعت شجاعتي وقلت لها قبيل انتهاء وقت الامتحان: أنا أحبك.. أريد أن نلتقي لأعبر لك عن مشاعري، قالت دون أدني تردد: "لا مشكلة"، حددت لها موعدا في محل "أتينوس" بمحطة الرمل، التقينا في مساء شتوي بعد ربيع قادم، هربنا من بعضنا لجظات فالقينا البصر على صفحة الموج الهادر في حوض الميناء الشرقي، لست من الذين يدهلون في مباشرة، أخرجت من جيبي قصيدة لشاعر أمريكي معاصر، قدمتها لها.

رجوتها أن تترجمها لي، تحمست للطلب، أخذت تقرأها عدة مرات بدأت تشرح لي ما تنطوي عليها القصيدة من دلالات من خلال التشبيهات والاستعارات والكنايا، طلبت مني أن أحضر معي في المرة القادمة بعض القصائد العربية، وأشرحها لها، قالت لي إنها تحب مصر بجنون وتتمنى أن تتعرف على أشعار وقصص وروايات الأدباء المصريين.

حانت لحظة المواجهة، لم يعد هناك وقت للخروج والمماطلة لفتنتني بنظرة مناسبة تغريبي بترجمة مشاعري إلى كلمات، قلت لها بإنجليزي المتلجلجة.

- هناك ما يجمعنا بالتأكيد.. ماذا سنفعل مع بعضنا؟

قالت بصراحة وبساطة مذهشة: نفعل ما نريد أن نفعله.

- أليست هناك حدود لما نفعله؟

- نحن الذين نضع الحدود، ونحن الذين نزيلها.

- هناك فارق في السن، يقترب من العشرين عاما.

- المشاعر الطيبة تزيل كل الفوارق.

قلت لها وأنا مذهول من بساطة الحوار: "بجذه البساطة؟!"

- هل تريد علاقة حرة أم علاقة زواج؟

- لا أقبل بأقل من علاقة زواج.. الحب يرتبط عندي بالالتزام.

قالت ببساطة ووضوح غريبين على طبيعتي وطريقة تفكيري.

- عندي إذن مشكلة بسيطة.. أحتاج بضعة أسابيع لحلها..

- بضعة أسابيع؟

- أنا متزوجة من طبيب مصري هنا في مصر.. حدث بيننا فتور عاطفي

أدى إلى خلافات لم يعد لها حل.. قررنا الانفصال بالتراضي وعن طيب

خاطر.. هو شرقي غيور.. يتهمني بأنني لا أراعي مشاعره وأنا أتعامل مع

الرجال.. الحرية في نظري لا تتجزأ.. لا أنكر أنه يتمتع بروح رياضية

عالية.. منحني الحق في اختيار توقيت الانفصال.. ظهرت أنت في حياتي..

وصلتني مشاعرك الطيبة نحوي.. مشاعر طفولية جميلة، رغم بعض

الشعرات البيض في رأسك.. هل لديك تعليق؟

لم تكن عندي أفكار مرتبة أقولها بوضوح.. قلت بعفوية وتلقائية

- هناك انقلاب صاحب يحدث في داخلي.. أحتاج لمراجعة كثير من الأفكار هناك شيء ما يجذبني إليك.. حديثك جعلني أكثر انجذاباً إليك.. أود لو أمتلك الشجاعة لأقبلك أمام كل هؤلاء الزبائن والرواد.. هل توافقين؟

- المشكلة مشكلتك.. ليست مشكلتي.

- ما الذي جذبك إلي.. أريد أن أصدق أن هناك شيئاً ما يجذبك إلي. شملتني بنظرة حانة، تمتزج فيها الأنوثة بالأومومة، نظرة تتسلل إلى القيود الخفية في داخلي، القيود التي لا تعطل انتفاضة حرية محلقة في خيالي، قالت كأنها تقرأ كتاباً مفتوحاً.

- كنت أتابعك منذ التحقت بفصلي الدراسي بالمركز.. رأيت فيك شكلاً مختلفاً عن غيرك... علمت أنك كاتب وأديب.. لم تخف مشاعرك نحوى.. غلبت مشاعرك الإنسانية على خلافات الجنس واللون والدين والثقافة.. الإنسان في داخلك يتجاوز القيود الموروثة أو المكتسبة.. لا تنسى أنني مدرسة لغة، واللغة ترتبط بالأشعار والقصص، بالبعد الإنساني في أعماق الأديب المبدع.

لم أشأ أن أقول لها إن حلم الحرية والتحرير يختلط في داخلي بوطأة القيود والانتماءات والتكيف مع الواقع، لم أرد أن أفسد انطلاق مشاعر بال قيود. التقينا بعد ذلك عدة مرات في تريانون، كاليتيا، مونسنيور، إيليت، باسترودس.. محلات إيطالية ويونانية ذات صبغة تاريخية. أمسكت بكفها عدة مرات، قبلتها ذات مساء في محل "سانت لوتسيا" كانت تحب

المحلات ذات الصبغة الأوروبية التي تنفرد بها إسكندرية اليونان والرومان، لم  
أشأ أن تتعد العلاقة حدود الصحبة الرومانسية والرعشات الوجدانية.

حان موعد رحلتي الثقافية إلى أمريكا مع زملائي كانت حدثا فريدا  
في حياتي لم يسبق له مثيل. ابن القرية الذي أصبح سكندريا  
"كزرموبوليتانيا" تطأ قدماه أرض واشنطن لول مرة بكل ما تحمله أرض هذه  
المدينة من ذكرى نشوء وارتقاء حضارة العالم الجديد، حملت معي قيم  
القرية وقيم الحضارة الأوروبية، لأتعامل بها مع قيم الحضارة الأمريكية  
البراجماتية.. من واشنطن إلى نيويورك غلي مونتانا إلى لوس أنجيلوي.. زرنا  
ولايات عشر تعاملت مع المواطن الأمريكي الحر البسيط، الذي لا يعرف  
شيئا عن جغرافيا وتاريخ العالم القديم، لا ينشغل بالصراعات الدائرة في  
آسيا وأفريقيا، ولا يقلق من الغرباء، فهو مجتمع غرباء انصهروا في مجتمع  
واحد، ذابت فيه فروق الأصل والجنس واللون والدين تجمعهم قيم الحرية  
والرخاء تحت راية الدستور والقوانين. لا ينشغلون بالسياسة الخارجية إلا  
إذا قتل جندي أمريكي في كوريا أو فيتنام، أو إذا حدث التضخم والغلاء،  
أحبت الإنسان الأمريكي رغم كل تحفظاتي على السياسة الخارجية  
الأمريكية.

خان موعد زيارة الوفد لولاية "ألاباما" في أقصى الجنوب الأمريكي  
زرنا قرية صغيرة، كل سكانها من "الهنود الحمر" .. سكان أمريكا  
الأصليون، الذين أبيدوا، ولم يبق منهم سوى بقايا بشر وحضارة زائلة،  
تقطن بعض القرى والنجوع في صحروات واسعة، يعيشون حياة بدائية

متسفة، قال لنا المرافق إنهم يرفضون الاندماج في المجتمع الجديد، ويعيشون على أمل استعادة حضارتهم الزائلة.. وعندما سألت المرافق هل يعبرون عن حلمهم هذا صراحة، دعانا في اليوم التالي لحضور تظاهرة محدودة، تضم بعط الهنود الحمر، يدعون لاستعادة هويتهم وحضارتهم وثرواتهم المنهوبة، كان هذا هو أقصى ما يستطيعون فعله لاستعادة هوية ضائعة.. حق التظاهر وليس حق استعادة الحق الضائع، وأخذت أتأمل سكان القرية، الذين تحولوا إلى مزار سياحي يشير إلى الماضي ويدخل البهجة وروح الإثارة علي قلوب السياح.. أفران بدائية لصنع رغيف خبز أثري له مذاق خاص.. بيوت قديمة أشبه بالجحور والأقبية.. ملابس رثة متهدلة أقرب إلى جلابيب رثة.. حزيني مكتئبة.. أطفال هائمون على وجوههم.. أغنام وأبقار ترعى في أرض جدد.. لا شيء مضيء في حياتهم سوى حلم مقبور في قلوبهم يتعذر تحقيقه بل يستحيل. بدت صورة قائمة بددت بهجتي بالرحلة، تذكرت ما جرى للفلسطينيين من ذبح وقتل وإبادة على يد المستوطنين اليهود من أجل إقامة دولة إسرائيل، قلت في نفسي ما أشبه اليوم بالبارحة.. ربما أن هذا التاريخ الواحد هو ما يجمع بين إسرائيل وأمريكا.. ربما ما يجمعهم الآن هو انتظار أسطورة المسيح الصهيوني الذي يحقق العدل على الأرض لمدة ألق عام.

كان لزيارة مدينة لوس أنجيلوس بولاية كاليفورنيا أثر كبير وعميق في نفسي كانت الوجه الآخر لما رأيته في ولاية ألاباما، التقينا بأساتذة جامعات ورجال أعمال، صحفيين وإعلاميين ومفكرين، بدت المدينة معقلا هاما من معقل الفكر والعلم والفن.. بدت نموذجا حيا لثقافة وحضارة العالم الجديد

متمثلا في الولايات المتحدة الأمريكية، وحانت فرصة مواتية تمنيته ومع ذلك لم أتوقعها، تم ترتيب اجتماع لنا مع مستر ديفيد. علمنا أنه أديب أمريكي معاصر، يهتم بفن الرواية، يهودي الديانة يجمع بين معارف التراث الشرقي ومعارف العصر.

تحدثنا طويلا في مقومات فن الرواية والقصة المعاصرة، وعلاقتها بفن القص القديم، دعانا لحفل عشاء في بيته، كان قصرا فاخرا فوق ربوة عالية تطل علي غابات كثيفة، واصلنا حديثنا في الأدب وعن أحوال مصر والوطن العربي، ثم حانت الفرصة لأن أنفرد به.

صارحني بأن عندي ما أريد قوله وأتخرج من البوح به. كان هذا صحيحا. أعجبني ذكائه، سألته عما إذا كان يجد حرجا في الحديث عن "اللوبي اليهودي" في أمريكا.

قال إنه يشعر بشغف مثير في الحديث عن هذا الموضوع مع شرقيين، عاد يقول إن الشرقيين لا يتعاملون مع الحقائق وطبيعة المصالح، وإنما يحكمون العواطف والانتماءات الجامدة، وجدتها فرثة سانحة لأتعرف على اللوبي اليهودي في أمريكا وكيف وصل إلى ما وصل إليه. قال لي بوضوح زائد.

يهود أوروبا المضطهدون كانوا أول من هاجروا مع المضطهدين الأوروبيين إلى أمريكا.. اعتبروا أمريكا أرض الميعاد المؤقتة التي تمهد الطريق إلى أرض الميعاد في فلسطين.. ساهمنا في صنع العالم الجديد عبر مائتي

سنة.. وعينا بحقائق القوة في هذا العصر.. انشغلنا بقضايا العلم والصناعة والتكنولوجيا والإعلام وكان لنا منها النصيب الأوفر.

المضطهدون الأوروبيون الذين هاجروا إلى أمريكا، أبادوا شعبا ودمروا حضارته أيا كانت، واستوطنوا أرضه.. لم تكن الأرض الأمريكية أرضا بلا شعب.

- لا أنكر حدوث اقتتال طويل الأمد بين السكان الأصليين والمهاجرين.. الحسم الصراع لصالح الأقوى.

- أنت هكذا تنحاز لحق الأقوى، ولا تنحاز لحق الشعوب وحقوق الإنسان.. أنا أذكرك بمبادئ حقوق الإنسان.

استغرق ديفيد في الضحك، وقال بظرف وممازحة

- هل تمتد أصولك العريقة إلى أصول "الهنود الحمر"؟!

تقبلت القفشة، عدت أقول له بجدية.

- كررت تجربة الاستيطان بشكل مأساوي معاك، عندما اصدتم الأفارقة بالشباك، لتنزعوهم من أوطانهم، تحولوهم لأي عبيد، يزرعون لكم الأرض التي خلت من سكانها.

- أنا أقدر أصولك الأفريقية، ولكن ما الذي يدعوك إلى استرجاع الماضي، وما الفائدة من ذلك؟ لماذا لا تتعامل مع الواقع بموازين القوة والمصلحة؟ ما حاجتك للماضي؟

- لأن تجربة الاستيطان تكررت في الوطن العربي.. الميليشيات اليهودية أبادت الشعب الفلسطيني وطرده من أرضه. لم تكن فلسطين أرضا بلا شعب كما يدعي الصهاينة... اللوبي اليهودي في أمريكا دعم إسرائيل

وساندها بلا تحفظات.. المسيحية الصهيونية في أمريكا الآن تشترط إعادة بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وعودة يهود العالم إلى فلسطين إيدانا بعودة المسيح المنتظر، ليحقق عدالة السماء لمدة عام.. أريد أن أتحدث معك الآن بلغة المصلحة، كما تحب وترضى.. لكم مصالح كثيرة مع الوطن العربي وأهمها البترول.. ألا تخشون من تهديد مصالحكم مع دول الوطن العربي؟

بدا عليه الارتياح وهو يتهيأ للحديث:

- أنا سعيد لأنك أتت تتحدث عن لغة المصالح.. اسمع يا صديقي العربي.. فوجئنا في عام 1948 بأن إسرائيل انتصرت على خمس دول عربية.. أثبتت وجودها وقدرتها على تأمين هذا الوجود.. من الطبيعي أن تقف أمريكا بجوار من أثبت وجوده وقدرته على البقاء. استمر الصراع العربي الإسرائيلي، وعادت إسرائيل تؤكد قدرتها على البقاء في عام 1967.. انتصرت على ثلاث دول عربية انتصارا ساحقا.. هل تريد منا أن نتخلى عن المنتصر؟.. موازين القوة والمصالح لا تقبل بهذا المنطق.. ثم إن مصالحنا مع الدول العربية لم تتعرض لأي خطر أو مجازفة.. حرب أكتوبر 1973 ادت إلى تصالح مصر والأردن مع إسرائيل، والقيّة تأتي.. أين المشكلة؟.. دعنا نتحدث بلغة الواقع بعيد عن أوجاع الماضي.

لم أجد داعيا للحديث عن حق الشعب الفلسطيني في العودة إلى أرضه، مستر "ديفيد" يتحدث عن موازين القوة عند إسرائيل، وموازنين الضعف عند العرب. هذا منطق المشروع الإمبراطوري الأمريكي في كل بؤر

الصراع في العالم ، لم يعد المطلوب هو التزام أمريكا بمبادئ "ولسون"، وإنما بتغيير موازين القوة لصالح الغرب، وهذا هو التحدي القائم الآن.

لا أنكر بأنني استمتعت كثيرا برحلي السياحية والثقافية إلى أمريكا.. زرنا استديوهات "هوليوود"، توقفنا طويلا أمام تمثال الحرية في نيويورك، وما يرمز إليه في الماضي والحاضر، ناطحات السحاب في شيكاغو وسان فرانسيسكو وغيرها تناول السماء، المتحف الدوار يدير الرؤوس بما يقدمه من منجزات تكنولوجيا العصر، المكتبات تحوي كل تراث العالم من الكتب.

وجدت بعض كتبي في مكتبة الكونجرس، المزارع الحديثة وأساليب الزراعة المتكورة، الغابات الكثيفة التي تكشف عن سخاء الكبيعة وكرمها والمتاحف الحديثة التي تعج بكم هائل من الآثار الفرعونية القديمة، والآثار الهندية والصينية وغيرها، وكأنها معرض عالمي لمنجزات العالم القديم.. البوتيكات والسوبر ماركت والمولات التي تشكل معرضا عالميا للحاجات الاستهلاكية للعالم الجديد دور السينما والمسارح والفنادق الشاهقة والكافيتريات في أبعى صورها.

عدت من رحلي لأمريكا بعد أربعين يوما، اشتقت كثيرا لرؤية "فرجينا".

ذهبت إلى المركز الثقافي كانت تعطي درسا في قاعة علوية وقفت عند شبك القاعة حييتها بإضارة ملهوفة من يدي، خردت من القاعة في

لحظة احتضنتني بلا حرج.. بادلتها حضنا بحضن قبلتي في خدي، كدت أقبها في فمها، تواعدنا على عشاء في فندق "الشانزليزية" على البحر. قلنا كلاما كثيرا. تحسنت إنجليزيتي بعد الرحلة، انفكت عقدة لساني، داعبتني بقولها: "أصبحت أمريكيا بعد الرحلة مثلما أصبحت مصرية بعد أن عملت بالمركز"، حكيت لها عن أجمل ذكرياتي في عشر ولايات أمريكية. قلت لها إن نيويورك وواشنطن ولوس انجيلوس أكثر إبهارا من باريس ولندن قلت لها إن أمريكا عالم جديد بحق، لم أشأ أن أحدثها عن بؤس سكان ألاباما، وعن حديث مستر ديفيد عن فلسفة القوة. رأيت أن أوجل ذلك الحديث إلى وقت آخر.

انتهزت لحظة مناسبة وقالت لي بفرحة غامرة: "عندي لك مفاجأة سارة.. تم طلاقني من زوجي "لوى".. أصبحت الآن حرة، فرحت بالخبر أكثر من فرحتها به، لم يعني فرحي من سؤالها بفضول. عزيزتي: هل كنت متأكدة أننا سنتزوج بعد طلاقك؟ قالت بتلقائية: "لم يكن انفصالي مرتطا باحتمال زواجنا.. اخترت ما أردت بحرية كاملة، بصرف النظر عن العواقب".

فرجينيا تلقني درسا آخر من دروي الحرية.. مدرسة لغة ومدرس حرية، قلت لها بسعادة: عندي لك أيضا خبر سار.. قررت أن أتزوجك، في أقرب وقت قالت بدلال، وهي تمسك كفي:

- ولكنك لم تأخذ رأيي.

- تصورت أنك موافقة.

- تصورك في محله.. ومع ذلك كان يجب أن تستشيرني.. أنا محظوظة..

محظوظة يا طفلي الكبير.

صمتت لحظات وتلبد وجهها بجدية مفاجئة رمتني بحيرة. بدا أنها تريد أن تقول شيئاً، وتحاول استقراء وقع ما ستقول، قالت ببدوء وترقب رد الفعل.

- خناك ما يجب أن تعرفه.. أنا يهودية... يهودية الديانة لا أكثر ولا أقل.

وقع الخبر وقع الصاعقة، لم أتصور ذلك، ولم يخطر في على بال، لم أستطع أن أخفي دهشتي وقلقي، جحظت عيناى على الرغم منى وشعرت أننى أمام فرجينيا أخرى غير التى عرفتها لم يسعفنى عقلى بأى تعليق، ارتعشت يدي وأنا أمسك بكوب الليمون، عدت إلى العاشرة من عمرى، عندما كانت هناك أسرة يهودية تسكن فى الشقة المقابلة لشقتنا فى حى "مخرم بك"، كن أحب مدام "ليلى" مثلما أحب أمى. أحرص على تحية زوجها "عمير" كلما التقيت به على سلم العمارة، مدام ليلى تهدينا من آن لآخر علبة حلويات من صنع يديها أمى ترد على الهدية بصينية "مهلبية" أو طبف "خشاق" ومع ذلك فقد وقع على خبر يهودية "فرجينيا" وقع الصاعقة. قطعت فرجينيا ذلك الصمت المرىب:

- من حقلك أن تتراجع عن قرار الزواج.. هذا لا يمنع أن نظل أصدقاء.

لم أشأ إلا أن أكون واضها وصريحاً، العلاقة لا تحتمل مناورة أونفاق قلت بصراحة.

- لا أستطيع أن أحدد بوضوح ما يدور في رأسي الآن.. أحتاج إلى مراجعة أفكاري.

- من حقك أن تعيد التفكير.. أنا أقدر ما يعتمل في عقلك الشرقي.  
- أشكرك على سماحتك.. على تقديرك للظروف.

تذكر فقط أن "ليلي مراد" كانت يهودية وتزوجت من مسلم.. "عمر الشريف" كان يهوديا وتزوج من مسلمة.. أنا لا أخرجك ، وإنما أساعدك على التفكير. قلت على سبيل التفكير بصوت عال.

- عمر الشريف أعلن إسلامه قبل أن يتزوج من فاتن حمامة.

ردت علي ببساطة محيرة ومدهشة

- أنا علي استعداد لأن أعلن إسلامي إذا كان هذا يريحك مما يمكن أن تعانيه.

صاعقة أخرى انقضت علي.. كيف تفكر بهذه البساطة، حتى وهي

تتعامل مع المعتقدات قلت بتحفظ:

- هذه تضحية منك تستحق الاحترام والتقدير.. ومع ذلك أحتاج لمراجعة ما يدور في رأسي.

- من حقك أن تراجع نفسك.. تذكر أنني لست مستعدة للتخلي عن صداقتك في كل الأحوال.

ودعتها وأنا في خال غير الحال.. لم يبد عليها أي شعور بالإحباط

أو خيبة الأمل، اعترفت لها في نهاية اللقاء لأنني مندهش من جرأتها في التعامل مع المعتقدات، قالت ببساطة أثارت غيظي هذه المرة: "الحرية

الحقيقية تحتاج إلى توضيحات.. الحر الحقيقي يعيد خلق نفسه عدة مرات  
يراجع الماضي من أجل صنع المستقبل".

عدت إلى بيتي وأنا أقاوم صراعا لم ينحسم بعد شربت العديد من  
فناجين القهوة وأكواب الشاي حتى أصابني صداع حاد، لم أذق النوم  
طوال الليل، أخوض امتحانا دراميا صعبا. هل انتصر لإنسانيتي أم لموروث  
أفكار؟ استطعت في الصباح أن أستجلي مكنون مشاعره، أمسكت بمفتاح  
العقدة طلبت لقاءها، دعوتها على عشاء في "سانت لوتشيا"، بدوت أكثر  
هدوءا وتركيزا قالت بمرح: أنا سعيدة باللقاء، بصرف النظر عما يدور في  
رأسك".

رجوتها أن تستمع إلى بصير وأنا أبوح لها بحقيقة مشاعري.

- اسمعي يا "فرجينيا".. حكيت لك أني كنت ضابطا سابقا بالقوات  
المسلحة، قبل أن أتحول إلى النشاط الأدبي والصحفي.. خضت أربعة  
حروب مع الجيش الإسرائيلي، حرب 56، وحرت 67، وحرب  
الاستنزاف، وحرب أكتوبر 73.. نجوت بأجوبة من الموت.. شربت بولي  
وأكلت الحشائش وأنا منسحب من سيناء عام 56.. شربت مياه البحر  
وأنا غاطس تحت مائه هربا من الطائرات الإسرائيلية، في حرب 67..  
عانيت من القصف الجوي لموقعي في حرب الاستنزاف.. أصبت في ذراعي  
وأنا أهاجم دشمة فوق خط بارليف في حرب 73.. شاهدت الكثير من  
القتلى والجرحى في رفح والعريش وأبو عجيله.. دفنت مع زملائي الكثير  
من الجنث في قلب الصحراء.. لم أستطع معاونة الجرحى على الانسحاب..

مازالت تؤرقني مشاهد الموت التي رأيتها بعيني رأسي.. وقعت مصر اتفاق سلام مع إسرائيل في عام 79، ومع ذلك لم يفز الفلسطينيون بوطن قومي على ثلث أراضيهم.. كيف أنسى هذه الأحداث الأليمة.

تأثرت "فرجينيا" بما سمعت بدت مشفقة عليّ من هول ما لاقيت، صممت طويلا مسحت شعر رأسي بكفها على سبيل المواساة.. أدارت رأسها لتخفي دمعة فرت على الرغم منها. غرقت في شجون الماضي، كسرت مهابة الصمت القائم وقالت:

- غابت عنك حقيقة هامة.. أنا يهودية بالدين.. لست صهيونية.. هل تستوعب الفرق؟

- لم تتولد عندي الرغبة في التفريق.. الآلام تولد الغضب العام. كل يهود العالم يحملون بأسطورة أرض الميعاد.. أسطورة دينية تخالف الواقع فلسطين كات وطنا لأجناس كثيرة.. كانت وطنا للكنعانيين والفلسطينيين والفينيقيين، واليهود.. كانت وطنا للجميع.

- أنا لا أعرف شيئا عن أرض الميعاد التي تتحدث عنها.. أتصور أن إسرائيل ستخلق متاعب كثيرة لليهود العالم.. هل تصدقني إذا قلت لك إنني أتعاطف مع حقوق الشعب الفلسطيني المغتصبة. أنت محسوبة على اللوبي اليهودي في أمريكا.. هذا اللوبي اليهودي يتحالف مع إسرائيل دون قيد أو شرط.

- اللوبي اليهودي في أمريكا يدافع عن مصالحه في العالم ومصالح أمريكا..  
لم تسمع عن مفكرين وسياسيين يهود يهاجمون إسرائيل ومساندة أمريكا  
لإسرائيل؟.. لم تسمع عن اليهودي الأمريكي "نعوم تشومسكي" الذي  
يهاجم العولمة والإرهاب والحضارة الغربية التي أعملت السلب والنهب  
للعالم طوال 500 عام؟

هناك مفكرون يهود كثيرون يدينون قيام إسرائيل وتشريد الشعب  
الفلسطيني الذي يعيش الآن في الشتات.

لم أكن أصور أن فرجينيا كارلي تملك هذا القدر من الفهم والوعي،  
وتتجاوز في قضايا حساسة بوعي مستتير، نجحت إلى حد ما في خلخلة  
ذلك الحاجز الذي عطل تواصل العاطفي معها، ومع ذلك قلت لها:  
أحتاج إلى مهلة: كي أصدق أنك لست يهودية صهيونية.  
قالت بثقة يمتزج فيها الحب بالتعقل.

- فلنكن أحرارا حقيقيين.. لنكن أصدقاء حتي يتحقق حلم دولة  
فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية.

اصطحبتها في سيارتي ونحن نقطع كورنيش البحر ذهابا وإيابا،  
لانتوقف عن حديث مسترسل ودود، أمسح رزاز أمواج البحر من فوق  
الزجاج الأمامي للسيارة، أقللت من سرعة السيارة وأنا أقترب من محل  
"الصعيدي" للمرطبات، المجاور لجامع "المرسی أبو العباس"، سألتها إن كانت  
تأخذ كأسا من الجيلاقي، أم طبقا من البليلة. طلبت طبق البليلة، وهي  
تسألني عنا أعرفه عن هذا الجامع، أخذت أحكي لها عن ذلك الشيخ

القرع أبو العباس الذي أمضى رحلة شاقة عبر الممالك والبحار، ليصل إلى الإسكندرية ويقيم فيها، ويدعو الناس إلى طريق التقوى والصلاح، حتى وافقه المنية، ودفن هنا في هذا المكان، بدت سعيدة وهي تستمتع بطعن البليلة، بدت مشغولة الذهن وهي تسألني فجأة:

- هل كتبت شيئاً عن تجارب الحرب التي خضتها؟
- كتبت ثلاث روايات عن الحروب الثلاثة التي شاركت فيها.
- هل ترجمت إلى لغات أخرى؟
- لم أجد الناشر الذي يترجمها.
- يمكنني أن أوصي بترجمتها عن طريق قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- لا أظن أن الجامعة الأمريكية تترجم أعمالاً تدين إسرائيل.
- حرية التعبير عندنا مكفولة بحكم الدستور.. دعنا نقدم الوجه الآخر للرأي العام الأمريكي.
- أنا أقبل هذا التحدي.. أراهن أنك ستخسرين هذه المعركة.. سأفوز بدليل إدانة جديد.
- لتكن "ناعوم تشومسكى" آخر.. تهاجم صفوف الإرهاب بما فيها إرهاب الدول.. امتحان
- حرية لا مفر منه. أدت موتور السيارة وأنا أقول لها بارتياح.
- دعينا نتمسك بصدقتنا.. نتمسك بزواج الأفكار.
- ربما يكون في ذلك مقدمة مقبولة لزواج الحب.



## محمود السيد

كان أحد أفراد دفعتي في الكلية الحربية.. لم أعرف عليه إلا بعد أن تخرجنا من الكلية، وأصبح زميلي في الوحدة التي التحقنا بها، كان له وجه صارم، دون عبوس أو تكشير.. تستطيع أن تثق فيه وتطمئن إليه ومع ذلك لم يكن قريبا إلى نفوس المحيطين به، ملامحه توحى بأنه يملك وعيا حادا بكل ما يجري حوله، ويستطيع أن يفهم كل المحيطين به على حقيقتهم، بصرف النظر عن الصور التي يجنون أن يظهروا عليها، يبدو مهيب الطلعة، شامخ البنيان..

وجه أبيض مستدير.. شعر أسود قصير.. قامة فارعة.. صدر عريض.. مفتول العضلات، له حضور "كاريزمي" يصعب اقتحامه، ولا يسهل الاقتراب منه دونما حذر ودون الانضباط في السلوك والكلمات ويبدو أكبر من سنه الحقيقي، هو في العشرين ويتصرف كما لو كان في الخمسين من عمره.

برغم ميله للعزلة وعدم المبادرة في خلق وتنمية صداقات، شعرت بأنه قريب من أكثر من غيره من الزملاء، في داخله شيء ما لا ييوح به وأريد أن أعرفه. فضول ما يدفعني لمعرفة كيف يفكر وفيهم يفكر، ارتاج لمبادراتي في الاقتراب منه، ودون أن يتخلى عن تحفظاته التي هي جزء ذكاء المتلقي، حيرني حماسه لتقبل صداقتي له دون غيري، وحرصه على التمسك

بها، تولدت بيننا مساحة كبيرة من العشم، انتهزتها فرصة لسؤاله عن رأيه في شخصي.. قال ببساطة واعية: "ملاحك توحى بسذاجة تصل إلى حد العبط.. أؤمن أن فضولي مهم.. تريد أن تعرف حقائق ما سسجرة حولك، بعيدا عن الدوافع الشخصية.. لست الشخص الساذج الذي أراه أمامي الآن.. أتوقع أن تدهشنا في المستقبل بمفاجئات كثيرة.

اختفت الوحدة التي التحقنا بها بدفعنا "سنة ملازم ثان" احتفاء خاصا، باعتبارنا دفعة الثورة "الدفعة التي التحقت بالكلية الحربية بعد الثورة بشهرين"، نظمت لنا دورة تدريب قصيرة لتعريفنا بالمهام المكنت إلينا، تحت إشراف البكباشي عز الدين وهبة، الذي بدا لنا ودودا ديمقراطيا، متجاوزا صرامة وحزم التقاليد العسكري، ربما كان يحتفل بالثورة من خلال احتفاله بدفعة الثورة، انتهت الدورة بحفل أفكار، يرأسه البكباشي عز الدين وهبة الذي أخذ يسألنا، بعد نهاية الأفكار عما استفدناه من هذه الدورة، فوجئنا جميعا بسؤاله الأخير ذي الطابع الديمقراطي عندما قال لنا: "أريد أن أعرف رأيكم في طريقة إدارتي لهذه الدورة، ومدى تقبلك لمعاملي لكم".

أربكنا السؤال، لم نتعود في الكلية أن يسألنا قائدنا، بل يأخذ رأينا في طبيعة أدائه لمهمته، أجبنا إجابات حذرة، لا تتعدى حدود اللياقة والانضباط، إلى أن حل دور محمود السيد، الذي قال بثقة وهدوء: حضرتك كنت ودودا معنا بشكل لم نتوقعه من قائد يتعامل مع مرءوسيه

الصغار المبتدئين.. لم أفهم سر هذا الود.. سؤال يخيرني، ولا أجد عندي إجابة واضحة عليه.

انصف التعليق بالجرأة، وبصراحة لم تكن مطلوبة، رد عليه البكباشي عز الدين (لم تكن الرتب قد تم تعريبها بعد) بابتسامة خالية من أي انفعال.. انتهى حفل الإفطار، وانصرف كل منا إلى وحدته الفرعية، التيت في المساء بمحمود السيد في كازينو الشاطي "كانت وحدتنا آنذاك الوقت في مدينة الإسكندرية"، قلت له بال تحفظ: كنت صريحا أكثر من اللازم، وأنت تعبر عن رأيك في البكباشي.. رأيك أثار شبهة ما، ربما سببت له بعض الحرج"، رد على تعليقي بسؤال:

- هل قلت أنت رأيك فيه بصراحة؟

- التقاليد العسكرية لا تحتمل أن يقول مرؤوس صغير رأيه في قائد وحدته.. لم أُنخدع في تبسطة معنا.

- وما هو رأيك فيه بصراحة.. تخل عن التظاهر بالسذاجة، وقل لي الآن ما تخرجت عن قوله.

- الشجاعة لها ضوابط وحسابات يا محمود.

- لم أظن بقول رأيي.. هو طلب الرأي.. الشجاعة تقتضي الصراحة.. لا تحتمل ظاهرا وباطنا.. الشجاعة تقتضي من المقاتل المصري أن يضحي بحياته وهو يشتبط مع العدو الإسرائيلي.. هل تبخل على مقاتل أن يقول رأيه بصراحة في حلصة إفطار؟

- هل تعطيني درسا في الشجاعة؟

- ليكن كذلك.. قل لي الآن ما لم تقله، وتمنيت أن تقوله.. أنا أمتحن شجاعتك.

- كان انطباعي عن شخصية "البكباشى" خياليا، يختلط فيه الواقع بالتاريخ.

- لا أريد مقدمات.. قل لي رأيك.. تعود أن تعبر عما في صدرك، حتى تفوز باحترام الناس.

ترددت قليلا، ثم قررت أن أقول رأيي بشجاعة، حتى لو كان يتصف بالسذاجة والبط.

- لم أقف لحظة عن تأمل عيني "البكباشى" الزرقاوتين، وبشرته الناصعة البياض، وحاجبيه الكثيفي الشعر، وشخصيته المتعالية رغم تظاهره بالتواضع، وجسمه الممتلئ، كرشه البارز.. تصورت أنه ينتمي لأصول تركية عثمانية.. الثورة طردت الملك وأنت حكمت أسرة محمد علي التركية.. هو يعرف أننا دفعة الثورة، ننتمي لأصول شعبية، لم يدخل أحدنا الكلية الحربية بكشف أطيان أو كارت من لواء بالجيش.. "البكباشى" شديد الذكاء.. أراد أن يحتفل بالثورة الوطنية، من خلال اختفائه بطليعة ضباطها الذين ينحدرون من أصول شعبية.. استشعر بوعي حاد نهاية النفوذ التركي بعد طرد آخر سلالة أسرة محمد علي. تحكم محمود في دهشته وانبهاره، ثم قال بظرف:

- أنت تذكرني بكتاب القصص والروايات.. ربما يكون لك شأن في هذا المجال.

لم أنسى هذا الحديث طوال حياتي، تلقيت درسا في الشجاعة من محمود تلك الشجاعة التي كلفته حياته فيما بعد. أبلغني بنبوءة، لم أتصور وقتها أن تحقق في يوم من الأيام كان ماثلا أمامي دائما وأنا أكتب قصصي ورواياتي ومسرحياتي.

تواصلت صحبتي لمحمود، لم نعد نفرق إلا في أوقات العمل، حرصنا على قضاء أوقات طيبة أثناء خدمتنا بالإسكندرية، تمددنا كثيرا على شواطئ الثغر، وتنقلنا ما بين كازينو وآخر، ثم صدر الأمر بانتقال وحدتنا من الإسكندرية إلى العريش.. تعرفنا على صحاره وجبال سيناء، لأول مرة. عشنا حياة الخدمة الميدانية بالجبهة تلقينا ذات يوم خبرا هاما أثناء اجتماع قائد الوحدة بنا، سيزور جمال عبدالناصر الجبهة في سيناء، وسيتناول أفكاره معنا في الغد.. وقع الخبر علينا وقع الصاعقة سنرى عبدالناصر بأعيننا وسيجلس معنا علي مائدة واحدة وبالتأكيد سيتكلم معنا، وقال بالفعل كلمته بعد انتهاء الإفطار، كان أهم ما قاله: المطلوب أن يقوم كل إنسان بواجبه بصرف النظر عن العائد والنتيجة، المقاتل يقوم بواجبه على أحسن وجه بصرف النظر عن النصر والهزيمة، قام "عراي" بثورته، وانحاز لحقوق الشعب، ولم يبوقف عند احتمالات النجاح والفشل، أصبح القدوة والمثل الأعلى لمن جاءوا بعده، قام بواجبه ورحل، قامت بعده ثورة 19 لتواصل المسيرة التي بدأها "عراي" قامت ثورة يوليو 52 لتستكمل المسيرة، كفاح الشعب لا يتوقف من أجل حريته وتحقيق الرخاء.

رموز الكفاح والنضال تقوم بواجبها وتمضي، ونحن نقوم بواجبنا الآن وسوف نرحل مثل من رحلوا قبلنا".

انتهى الاجتماع، ولم ينته حديثنا، نحن أبناء الثورة ومقاتليها، عما سمعناه.

تكلمنا جميعا بلا انقطاع، ولم ينطق محمود السيد بكلمة واحدة، كان الوحيد الذي أريد أن أسمع رأيه فيما قاله عبدالناصر، كنت أشعر في داخلي أنه يفهم ما لا نفهمه، ويرى ما لا نراه، انتظرت حتى المساء لأقتنص فرصة انفرادي به. زرتة في موقعه.. أدرك بذكائه هدي في من الاختلاء به.

لاذ بالصمت انتظر بصبر مفاحتي له لمعرفة انطباعاته عن هذه الزيارة المدهشة، سألته:

- ما رأيك في هذا الزعيم؟  
- زعيم يملك كل مقومات الزعامة.. يعرف ما يريد.. ويعرف كيف يحقق ما يريد.

- أنت إذن معجب به.  
- لا أشك في وطنيته وإخلاصه.. لكنني أخشى عليه وعلى البلد من طموحاته الشخصية.

- أضمن أنك تلمح إلى عزل محمد نجيب.. وإعفاءه من كل مناصبه.  
- هذا الحدث يستحق الدرس والتمخيص.. نقطة تجول خطيرة في مسيرة الثورة.

- محمد نجيب كانت له أيضا طموحاته الشخصية، وهذا لايشكك في وطنيته وإخلاصه.

- محمد نجيب أراد عودة الجيش إلى ثكناته، وتسليم الحكم للمدنيين.  
- هذه ثورة لها أهداف.. من حقها أن تتولى بنفسها تحقيق هذه الأهداف.  
صمت محمود طويلا، بدا أنه يستشرق آفاق المستقبل، وهو يقول:  
- من الآخر.. نحن أمام حكم عسكري لا نعرف متى ينتهي.. متى يسلم السلطة للمدنيين!

- هل تريد العودة إلى تناحر الأحزاب.  
- الحاكم القوي المفرد بالسلطة يضعف شعبه.. يعقمه من حق إبداء الرأي والاختلاف..

عندما يتحول الحاكم القوي إلى أسطورة يعجز في النهاية عن التفريق بين الحقائق والأكاذيب.

سألته بانفعال زائد، يجمع بين الحيرة والتردد والإعجاب.

- من أين أتيت بهذا الوعي السياسي، ولم تنزل في العشرين من عمرك؟  
- انشغلت بالسياسة وأنا في العشرة من عمري.. كنت أشارك في مظاهرات، ويتم القبض علي.

واصلنا الحديث بعض الوقت.. انتهى اللقاء. قررت الانصراف..  
توقفت عند مخرج موقعه عندما سمعته يناديني.. أدت وجهي نحوه، قال بما  
يشبه الحكمة.

- يظل الحاكم الفرد يصدق ويصدق حتى يتحول إلى أسطورة.. عند ذلك  
يظل يكذب ويكذب فيصدق الناس.. ويظل يكذب ويكذب فيصدق  
نفسه.. هذه حكمة لمفكر ألماني في زمن النازية.

تذكرت مقولة "محمود مرسى" هذه، وأنا أسترجع ما جرى قبيل  
وأثناء نكسة يونيو 1967.

تذكرته مرة أخرى، وأنا أسترجع أسطورة نصر أكتوبر 73، ثم ما  
جرى بعد ذلك للحاكم الفرد في حادث "المنصة" في أكتوبر 1981.

لم نبق طويلا في موقعنا بالعريش انتقلت الوحدة إلى موقع أمامي  
متقدمة في رفح، لم يكن يفصلنا عن موقع العدو المقابلة أكثر من 500  
متر، أصبحنا الآن وجها لوجه أمام العدو الإسرائيلي نراقب تحركاته  
وسكناته، نرصد استعداداته، نرى جنوده لأول مرة بلحمهم وشحمهم،  
نرقبهم وهم يغنون ويرقصون تحت أضواء خافتة، لا نعرف إن كان ذلك  
على سبيل التسلية والترفيه، أما على سبيل استفزازنا، كان ذلك قبل بدء  
العدوان الثلاثي بثلاثة شهور.

كان هناك وقف تام لإطلاق النيران، وعدم وجود أية تحرشات  
ارتحنا كثيرا، أنا ومحمود، لشخصية قائد الكتيبة الجديد.. كان على درجة  
كبيرة من الثقافة والوعي بمناحي الفكر السياسي والاقتصادي وما يجره في

عالمنا المعاصر، كنا نتحاور ونتناقش مع في مختلف القضايا والموضوعات، دونما تجاوز لمقتضيات الانضباط العسكرية، أو التورط في موضوعات أو أفكار حساسة، تتعلق بتوجهات ورؤى المشروع الثوري القائم، كنت أنا ومحمود أقرب الضباط إلى عقل قائد الكتيبة.

"أصبح فيما بعد مديرا للمخابرات العامة"، رغم سننا الصغير نستطيع أن نفهم ما يقول ونعلق ببساطة وبراءة على شروحاته الفكرية. كانت لي أيضا حواراتي الهامة التي تصل أحيانا إلى مجادلات حادة مع محمود السيد، اقتربت منه كثيرا، تعدت خطوطه الحمراء، توغلت في داخله، فتراجعت حساسياته بحكم انطوائيته، لم يكن يجب أن يكون شخصه موضوع حدين وها هو يبوح ويعبر ويفشي عن الممكنون، علمت أنه كان وفديا متعصبا لوفديته في صباهن يؤمن بالديمقراطية وحرية التعبير، يلتزم بالتعددية وتبادل السلطة السياسية، والشعب هو مصدر السلطات فهتمت أنه لا ينشغل كثيرا بالعلاقات النسائية، والمرأة في نظره هي زوجة وام أولاد ومكانها البيت، بحكم نشأته الريفية، لم يشاركنا، ولو مرة واحدة، في أي سهرة نسائية، لم يذق أبدا طعم الكحوليات، ولم يشرب، ولو على سبيل التجربة سيجارة واحدة محشوة بالمخدرات، بدا لي كأنما يعد نفسه لمهمة، والظهور بمظهر مهيب يحافظ على مسافة محسوبة بينه وبين رؤساءه ومرؤوسيه.

وحان وقت الصدام والنزال مع العدو الإسرائيلي، حدث العدوان الثلاثي في 29 أكتوبر 1956، كنت أنا ومحمود نحتل موقعا متقدما في

رفح، وفي حالة مواجهة مباشرة مع القوات الإسرائيلية، كنت أنا قائد لوحدة المشاة، وكان محمود قائد فصيلة القواذف المضادة للدبابات "البلندسيد". لم يقتنع محمود ببقائنا في مركز قيادة الموقع طلب من أن نتقل إلى الخط الأمامي للموقع، حتى نصبح وسط الحنود لنشعل حماسهم ونقدم صمودهم، تخندقنا في الخط الأمامي.. لم يكتف محمود بذلك أمسك بنفسه بقواذف "بلندسيد"، ليدمر بأصبعه يده القابضة على الزناد دبابت العدو. صمدنا يومين، لم ينج العدو، وفي مساء 31 أكتوبر وصلنا الأمر بالانسحاب السريع من سيناء إلى منطقة العناة، للدفاع عن القناة وعن مصر، بعد احتلال القوات البريطانية والفرنسية لبورسعيد وما حولها.

طلبت من محمود أن ترتب لحظة انسحاب منظم قال لي بهدوء مذهل: "من قال لك إنني سأنسحب؟" قلت دون تردد: صدر أمر الانسحاب من القيادة العامة للجيش. هذا أمر واجب النفاذ.. لا نعرف كل ما يجري في ميدان القتال، أطلق قذيفة بلندسيد، دمرت جنزير دبابة وعطلتها عن مواصلة التقدم، ثم عاد يقول بانفعال زائد: "مازلنا قادرين على إيقاف العدو وتدميره.. لم يسقط موقنا بعد.. لماذا ننسحب؟.. فلتكن مهمتنا الآن حماية ظهر المنسحبين، ذكرته بأن هذه ليست آحر معركة مع العدو، ولنا بالتأكيد جولة أخري معه، عاد يقول وسط أزيز النيان، لست مقتنعا بالانسحاب أمام عدو عاجز عن اقتحامي وهزيمتي.. عدت أقول له برجاء: "تذكر أنك تعصي أمرا بالانسحاب.. ليست هذ

معركة كربلاء ولست الحسين عاد يقول بعناج وتصميم طالبنا عبد الناصر في كلمته الأخيرة لنا بفعل الواجب بصرف النظر عن النصر أو الهزيمة".

لم يعد من الأمر بد. بقي من بقي مع محمود السيد انصعت لأمر القيادة، وانسحبت مع باقي جنودي شاهدت العدو بعد انسحابي، وهو يحاصر الموقع، نجح بعض الجنود في الإفلات من الحصار، ولحقو بنا علي طريق العودة سالت أحدهم عن مصير محمود السيد، أفادني بأنه استشهد تحت جنزير دبابة نجحت في اختراق الموقع.

لم تغب صورة محمود عن ذاكرتي طوال حياتي، فقدت أعز صديق تصورت أنه لن يفارقني بهذه السرعة، تخيلته ونحن نقتحم قناة السويس عبر القوارب والكباري ونحطم خط بارليف تذكرت أنه أثناء توقيع معاهدة كامب ديفيد، تذكرت وسط ضجيج حادث المنصة، لم أتوقف عن قراءة الفاتحة على روجه، وأنا اتابع مجريات الأحداث.



## موسى داود

هو ابن عمي.. وهو بمثابة الأب الثاني لي ولأخي الأكبر هشام، ويحتل منزلة الابن الأول لأبي بحكم الرعاية والعطف والتوجيه، تعودت أن أراه بمنزلنا بالقرية كل يوم، طوال شهور الإجازة الصيفية الثلاثة، تولى أبي تعليمه حتى حصل علي دبلوم مدرسة المعلمين، وأصبح مدرسا للمرحلة الإلزامية "الابتدئية حاليا" أراد موسى أن يرد الجميل لأبي فكان يراجع معي، أنا وهشام دروس اللغة العربية والحساب طوال أيام الإجازة.

تولدت بيني وبين موسى علاقة محبة واحترام، كنت في السادسة من عمري عندما تعرفت عليه، تطورت علاقتي له تحولت إلى صحبة إعجاب وانبهار بهدوئه وطيبته ومظهره المهيب، طويل القامة أطول رجل عرفته في حياتي، له أنف بارز يجمع بين سمرة أهل الريف وسواد العينين، وصدر عريض وقوام رشيق بلا كرش، تعودت أن ألاحظه في معظم المحيطين بي من الكبار يرتدي جلابيب زاهية فضفاضة وطاوية حديثة لها كورنيس، ليست كطواقي الفلاحين الصوفية، لم أره مرة واحدة غاضبا أو منفعلا بعصبية واحتداد، عندما يضحك، فمن أعماق قلبه وبصوت لا يصل إلى حد القهقهة، كان عميق التدين، يرتجف قلبه بالإيمان وليس فقط بالشعائر والطقوس، يصلي الفرض في وقته، يبتهل ويتمتم بالدعاء كلما اختلى بنفسه، أدى فريضة

الحج بعد عام من اشتغاله بالتدريس كان يدب أن نناديه دائما بـ"يا حاج موسى".

كنت قريبا إلى قلبه أكثر من أخي هشام. يراني مجتهدا في دروسي، راغبا في التعلم، مستجيبا لتوجيهاته، لا أميل إلى الشقاوة واللعب مثل أخي هشام، الذي يضيق بتمرده، وعدم استذكار دروسه، لم يتوان عن تذكير ببعض تصرفاتي، حتى بعدما كبرت.. كنت عندما أحوج أصرخ وأقول: "أكل..أكل..أكل" عندما كبرت وكانت تجمعنا مائدة طعام، يستغرق في الضحك وهو يرمقني بنظرة محبة: "أكل..أكل..أكل"، وينغمها بنفس الطريقة التي كنت أقولها.

وصلت إلى سن الثامنة، ومازلت أكل وأشرب وأكتب بيدي اليسرى..

لم يتقبل الحاج موسى هذه العادة بحكم تدينه نصحي أكثر من مرة، ولم أرتدع، استعصي التعود على التغيير، تحول نصحه مرارا إلى تحذير، ثم قرر أن يعاقبني كننا نتغدى سويا عندما بدأت أتناول طعامي بيدي اليسرى.. أمسك بيدي اليسرى. سحبني بعيدا عن المائدة، استل فرع شجرة، وأخذ يضربني على يدي حتى سال منها الدم.

وضعت يدي المجروحة على قلبي، الذي انكسر وسال منه دم آخر، دم الكرامة وهيبة الأمل جريت مذعورا نحو جامع العائلة القريب توضأت بتوتر وعصبية وصليت الظهر دعوت الله كثيرا، ولكني لم أغفر لموسى

فعلته، مرت السنوات والأعوام دونما انقطاع، تذكرت هذا الحادث عندما كنت أتناول الغداء مع خطيبي التي أصبحت زوجتي، وكان معنا أخوها طيب الأعصاب، رجتني أن آكل بيدي اليمنى بحكم تدينها، اعترض أخوها الطيب من وجهة نظر طبية، قال إن هذه العادة مرتبطة بالتركيب العصبي للمخ، وليس من المناسب صحيا عدم الاستجابة لنداء المخ، سعدت كثيرا بهذه المعلومة الطبية، رأيت فيها نوعا من المصالحة بين الدين والعلم. حرصت على التمسك بهذه المصالحة في شتى مناحي التفكير والسلوك.

تواصلت السنوات والأعوام وقرر الحاج موسى أن يتزوج، كانت عينه على أختي "نعمات". تحسس طريقة نحو استرضاء أبي والحصول على موافقته. باءت محاولاته بالفشل، كان أبي يطنع في عريس لنعمات أعلى مقاما من مقام مدرس "الزامي".

عانى موسى من الشعور بالإحباط بعض الوقت، حتى تزوج وانشغل بحياته، وانقلبت علاقته بنا إلى شبه قطيعة، ولم أعد أراه إلا في مناسبات الأفراح والمآتم.. كان كلما رأيي بالبدلة العسكرية يقول لي بمودة وإعجاب: "إزيك يا فالخ.. لم أكن أصدق أنك ستكون أحد رجالات الثورة التي تحكمننا الآن".

أنجب موسى صبيانا وبناتا تمكن آخر ابن له من دخول الكلية الحربية بدون وساطة، وأصبح بعدي ثاني ضابط في قريننا.. اتصف ابنه "سالم" بالتدين العميق إلى حد التعصب الذي أدى به إلى الانتماء السري

لتنظيم الجهاد، وهو في رتبة النقيب، عندما تم توقيع معاهدة "كامب ديفيد"، وما أن بدأت التحريات والاعتقالات بعد حادث المنصة في أكتوبر 1981، حتى تم القبض عليه بتهمة الانتماء لتنظيم الجهاد المحظور، وحكم عليه بالسجن 15 عاما.

مرت عدة سنوات عندما انتهز موسى فرصة تواجدي بالقريبة وحرص على مقابلي. كان يعرف أنني وصلت لرتبة "العميد" وأشغل منصبا كبيرا. أهداني فطيرة "مشلتت" فاخرة، وكان يعرف أنني التهمها بأظفري قبل أصابع يدي اليسرى، طلب من أتوسط لابنه للإفراج عنه.

أخفيت دهشتي وعجبي وذهولي، قلت له إن طلبه مستحيل، لا يمكن التوسط لمتهم شارك في جريمة قلب نظام الحكم، والتنظيم الذي ينتمي إليه سالم مازال يواصل العمليات الإرهابية، كان "السباعي" ابن عمي يحضر هذه الجلسة وهو فلاح ريفي بسيط، لم يفهم هو الآخر عجبه وذهوله.

لم يكن من حقه أن يعلق أو يبدي رأيه، وهو فلاح بسيط، اكتفى بطأطأة رأسه وممصصة شفتيه، طلب من موسى أن أزوره في السجن، لأخفف عنه آلام التعذيب أفهمته أنه حتى طلبه هذا مستحيل، لأنه يثير الشبهات، وربما يعقد الأمور.. شعرت أن موسى كان يفرج عن آلامه وعذاباته، وربما كان يعي في أعماقه بيأس المحاولة، انصرف موسى وهو يجرجر أذيال الإحباط.

نفخ "السباعي" آخر أنفاس عجبه ودهشته سألني باستغراب.

ماذا يريد منك هذا الرجل؟

- سمعت بأذنيك.

- هل هذا طلب رجل عاقل؟ .. رجل متعلم؟

- الألم والعذاب يجعل إنسانا يتمطى بريشة في الهواء أو بجبل مقطوع.

قال "السباعي" بانفعال يصل إلى حد الهياج.

- يا سيادة العميد.. سالم لم يسرق جاموسة.. سالم عصى الفرعون..

انقلب عليه.. كان يستحق الإعدام.. رينا ستر.. يحمد ربه أنهم لم يؤذوه

بجريمة.

أدهشني تعليق السباعي بدا أكثر وعيا، رغم بساطته، من الحاج

موسى، عبر بوضوح عن علاقة المواطن المصري البسيط بحاكمه.. طاعة

الفرعون.. عدم التفكير في الغضب والعصيان.

مرت سنوات كثيرة، كان قد قرأ بعض قصصي ورواياتي في

الصحف، اتصل بي تليفونيا هنأني بحماس على اجتهادي وشطارتي، طلب

من أزوره في أقرب وقت وأن أهديه بعض كتبى، ليصحح لي بعض أخطائي

النحوية، زرتة بالفعل استقبلي بفرحة غامرة وهو يحتضني، ويضحك من

أعماق قلبه، وهو يذكرني بصرختي الطفولية: "أكل.. أكل.. أكل" قال لي

ونحن نتناول العشاء: "إزيك يا فالح.. لم تكتف أن تكون ضابطا فاصبحت

كاتبا مثل طه حسين وتوفيق الحكيم".

قلت له بتواضع: "كُتبت على سبيل الهواية.. ولا أتوقع أن أصبح كاتباً كبيراً.. ذكرني بأن أي تمنى أن يكون كاتباً، ولم يتحقق أمله، وهو الآن سعيد في قبره، لأنني حققت أمله نيابة عنه.

مرت سنوات أخرى كثيرة، تم الإعراج عن سالم موسى. لم تطل إقامته بمصر سافر إلى السعودية، ومنها إلى أفغانستان، ومن أفغانستان إلى أمريكا. حصل على الجنسية الأمريكية، أصبح يزور مصر بصفته مواطناً أمريكياً، فوجئت بدعوته لي لحضور زفاف ابنتي البكر في فندق "شيراتون" بالمنتزه حرصت على حضور الحفل، لأتعرف على قريبي الذي لم أعد أعرف عنه الكثير، حضرت الحفل جلست في المقعد الذي خصص لي، لفت نظري روح النظام والانضباط الذي يسود الحفل. هناك منصة تتصدر القاعة يجلس خلفها خمسة من المشايخ والفقهاء هناك قاعة للرجال وأخرى للنساء، وجدت نفسي وسط أكثر من خمسمائة مدعو، بعضهم يرتدي بدلات وبعضهم يرتدي الجلابيب والعمم، ومنهم من يرتدي القال والعباءة، والأدخنة تتصاعد من الأوعية التي تحوي شتى صنوف طعام العشاء الفاخر، استمنا إلى النصائح والتوجيهات الدينية من خلال كلمات الجالسين خلف المنصة. لم يكن هناك غناء أو موسيقى أو رقص.

كان الجالس بجواري هو الطبيب على موسى أخو سالم، لم أكن قد رأيته منذ صباه الباكر، أخذ كل منا يتعرف على الآخر، كأننا غرباء ولسنا أقارب، حدثت بيننا ألفة ذوبت جليد البعاد، بعد أن تحدثنا في

الخصوصيات والعموميات، تحكمت في لهفتي بعض الوقت لمعرفة آخر أحوال وأخبار سالم. أبلغني بأن هذا الاحتفال تكلف مائة وعشرين ألف جنيه، انتهزتها فرصة لسؤاله عن أحوال سالم، أخذ يحكي بإسهاب وبلا تحفظات علمت منه أن سالم يملك شقة فاخرة في نيويورك، وأخرى في لندن، وبيتا بحديقة في "مكة"، ويملك سيارة "لاندروفر" ذات زجاج مانع من اختراق الرصاص، وصاحب شركة سياحية في أمريكا، ترعى وتنظم رحلات الحج لمسلمي أمريكا، وترتب لهم من يصحبهم في طقس الطواف، علمت أن له ثلاث زوجات وعشرة أبناء وسبع بنات، ولا يكف عن الطواف بالبلدان الإسلامية بجواز السفر الأمريكي.

حرصت في نهاية الحفل، على إعادة تهنئة سالم بزفاف ابنته، واستئذانه في الانصراف.. تبادلنا الاحتضان بحبة ووقار، قال لي بثقة زائدة:

- أنا في انتظار زيارتك في أمريكا.. هذه دعوة تتضمن التكاليف.. هل لديك مانع؟

لم أنبهر بالعرض.. ابتسمت وأنا أقول له بتحفظ.

- الموانع كثيرة.. أشكرك على أية حال.

عاد يقول لي بلهجة من يقدم عرضا مغريا.

ألم تفكر في كتابة القصص والروايات الإسلامية؟.. الناشر عندي والأجر كبير.

بالغت في توديعه بجرارة انتابني ههاجس بأن هذا اللقاء ربما يكون  
آخر لقاء أردت أن أطمئن عليه بعد حادث تدمير برجى "نيويورك" في  
11 سبتمبر 2001، قال لي أخوه علي بيأس:

- انقطعت صلته بنا.. اختفى من أمريكا.. ربما يكون في أفغانستان أو في  
سجن "جوانتانامو".

أخبرني على بأن أباه "الحاج موسى" لم يعد يغادر سريره. سقط  
ضحية اكتتاب نفسي حاد مصحوبا بفقدان الذاكرة.

## عبد الستار المواردي

تعرفت عليه بعد أن انتهت خدمتي العسكرية، وبدأت نشاطي الأدبي، وأصدرت مجموعت القصصية، الأولى في عام 1979، التي توأكب نشرها مع توقيع معاهدة "كامب ديفيد" ولأنني أصدرت "المجموعة" على نفقتي الخاصة، نصحتني من تعرفت عليهم من الأدباء، بإهدائها إلى المشرفين على الصفحات الأدبية في الصحف والمجلات، للتعريف بها من خلال نشر أخبار ومتابعات نقدية، تحمست للنصيحة، كانت دار "أخبار اليوم" قريبة إلى نفسي، فكانت أول ما توجهت إليها التقيت بالصدفة بالصحفي الشاب "مصطفى عبدالله"، الذي كان يعمل بالصحفة الأدبية، بصحيفة الأخبار، لم يخف دهشته وهو يتأمل بعض الشعرات البيض في رأسي، كاتب لا يقل عمره عن أربعين عاما، يصدر أول مجموعة قصصية له. نصحتني بالتعرف على الأستاذ عبد الستار المواردي "المشرف على الصفحات الأدبية بالدار".

وإهداء كتابي له، كنت أتابع عموده اليومي بصحيفة الأخبار. اقتربت من مكتب الأستاذ "المواردي" بخرج. كنت أعني أخوض تجربة متهوره في سن متأخرة، توفقت لحظات وأخذت أتأمله، رجل لا يقل عمره عن ستين عاما.. قصير جدا ونحيل، لا يكاد يظهر على مكتبه، لا يزيد وزنه عن أربعين كيلو جراما، رأس أصلع صغير، مدقون داخل كومة كبيرة من

الأوراق، مرهوب الجانب. لا يقترب أحد من مكتبه إلا لسؤال أو إبلاغ معلومة.

قدمت إليه الكتاب، دعاني للجلوس بإشارة محسوبة من يده، أخذ يتصفح الكتاب بهدوء وتؤدة.

أخفى دهشته بخبرة محترف، سألني عن عمري قلت 44 عاما، سألني لماذا تأخرت، قلت لأنني قضيت ربع قرن من الزمان في الجيش، سألني ماذا تعرف عن الكتابة، أخبرته بأنني حصلت هذا العام على ليسانس آداب قسم لغة عربية، قال بنفور: هذا أكبر خطأ في حياتك، قلت لماذا؟ قال بثقة: كان يجب أن تلتحق بمعهد الفنون المسرحية.. المسرح أيو الفنون.. أنا لا أعتز بما يسمونه فن القصة والرواية.. هذا استسهال لا ينتج فنا أصيلا.. أدركت أنني ضللت طريقي.. اتجهت إلى الصحفي الخطأ. نهضت وتهيأت للانصراف.. دعاني للجلوس، أهدى يدي بود زائد، علمت منع أنه حصل على ليسانس الفنون المسرحية وأصبح أستاذا بالمعهد، وأنه كان يعيد كتابة المقررات بخط يده، ليضاعف استمتاعه بالمادة الدراسية، أفهمني أننا نعيش حالة انحطاط ثقافي بسبب تراجع الكتابة الأصيلة للمسرح.

لم أجد عندي ما أقوله، عدت أهياً للانصراف، طلب مني مهلة حتى يقرأ مجموعتي القصصية.. وعدي بالتعليق عليها إذا أعجبتك، لم أصدق ما

سمعت، طلب مني وعدا بالكتابة للمسرح بعد أن أعد نفسي لذلك، لم أجد ما يمنعني من تنفيذ الوعد.

فوجئت بعد عشرة أيام بأنه كتب تعليقا عن "المجموعة" في عموده اليومي، كدت أرقص طربا، أدركت أنه قرر مساندي ولو من باب التشجيع، توطدت علاقتي به، أصبحنا أصدقاء حتى آخر يوم في حياته، تعلمت منه الكثير، لم ييوقف عن استدراجي للكتابة للمسرح، فاجأته بعد ثلاث سنوات بأول مسرحية كتبها احتفل بي بفرح غامر، لم يكن عادته أن يقدم مشروبا لأي ضيف كان يرى في هذه العادة مضيعة للوقت، صمم دعوتي لفنجان قهوة تغامز الصحفيون وهم يتأملون فنجان القهوة. تصوروا أنني شخصية أسطورية، أتت من كوكب آخر غير كوكب عبدالستار المواردي.

كان طبيعيا أن أتبع مسيرة حياة "المواردي" علمت أنه رجل عصامي حصل على الثانوية العامة، هو موظف بالسكة الحديد، عمل صحفيا تحت التدريب بدار أخبار اليوم لمدة خمس سنوات، حتي تم تعيينه. تألقت موهبته الصحفية، حتى أصبح الآن مشرفا على كل الأبواب الثقافية بصحيفة الأخبار، انتسب إلى معهد الفنون المسرحية، وحصل على الليسانس بدرجة امتياز، وعين مدرسا زائرا بالمعهد أصبح ناقدا مسرحيا لا يشق له غبار.

علمت أيضا أنه من أسرة فقيرة، توفي والده وهو في الخامسة عشر من عمره، وترك له أربعة أخوة بنات وولدين. قرر عدم الزواج. قرر رعاية

وتعليم إخوته، حتى حصلوا على شهادات جامعية، لم يتوقف عن النضال والمجاهدة حتى تم زواج كل إخوته. أغلب الظن أن رحلة الكفاح قد أنهكتهم، فلم يفكر في الزواج والإنجاب، شغلني طويلا فكرة امتناعه عن الزواج، تخرجت من سؤاله. كانت صداقتي للصحفي الشاب مصطفى عبدالله، قد قطعت شوطا طويلا، لمحت له بالسؤال، استغرق في الضحك أتمني بالسداجة والبراءة. علمت منه أن المواردي كان يتابع الممثلة المسرحية الشهيرة سناء وجدي بحماسة واهتمام بحكم موهبتها الفياضة، وقد كتب عنها الكثير من مقالاته النقدية، ثم أصيبت باضطرابات عصبية حادة أقعدتها عن مواصلة التمثيل. تولى رعايتها وعلاجها قرابة عامين، تحسنت حالاتها، ولكنها عجزت عن مواصلة التمثيل، انقلبت علاقة المواردي بها من علاقة عطف وتقدير إلى علاقة حب جارف، فتحها في الزواج فقبلت دون أدنى تردد، بعد أن انقطعت صلتها بالحياة القنية، وأصبح "المواردي" هو السلوي والعزاء، عاد مصطفى عبدالله يقول وهو يغمز بعينه اليسرى: "أعتقد أن العلاقة بينهما هي علاقة حب نقي وطاهر أكثر منها علاقة زواج تقليدية".

لم يتوقف عبدالستار المواردي عن متابعة إنتاجي القصصي والمسرحي. كان يتحفني بالكتابة عن كل كتاب أصدره في عموده اليومي، حتى أن أصدقائي وزملائي كانوا يسألوني دون انقطاع: ماذا بينك وبين هذا الرجل الذي لم نعرف له صديقا طوال نشاطه الصحفي؟ كنت أقول لهم بصدق: لأنني استمعت لنصيحته وكتبت مسرحيات أعجبته "قال لي

صديقي الناقد جمال البدرى: لقد نجح في تدمير مستقبلك. نحن في زمن الرواية والدراما التليفزيونية ولسنا في زمن المسرح.

كانت لعبد الستار المواردى اهتمامات فنية عديدة، من بين هذه الاهتمامات، حبه للفهان الراحل سيد درويش، دعاني مرة لتناول الغداؤ مع في المطعم القائم بالدور العلوي لمبنى أخبار اليوم، كنت أعرف أنه رئيس جمعية "سيد درويش". كان دائما ما يفوز برئاسة الجمعية بالتزكية، أعتقد أن مجلس الإدارة يزيه بلا منافسين، ليحظى بالتغطية الصحفية، المطلوبة لنشاط الجمعية، من صحفي كبير ومرموق مثل "المواردى". سألته وأنا أقشر أصبع موز في نهاية الغداء، هل اهتمامه بسيد درويش من باب النشاط الفني أم أن له منزلة خاصة نفسه، غضب من السؤال، اتهمني بالجهل ونقص المعرفة بالقمم الفنية والاستسلام للغناء الهابط في زمن السندويتشات، عاد يقول بحماس وانفعال: سيد درويش صاحب ثورة غنائية ليس لها مثيل.. نقل الغناء العربي من مدرسة التطريب إلى مدرسة التعبير.. من الغناء التركي المنتظم الإيقاع الرتيب إلى الغناء الشعبي الوطني الذي يمس قلوب الناس البسطاء، فيحفز الهمم ويغذي الروح الوطنية.. ساهم أيضا في تطوير المسرح الغنائي الصاعد في أيامه.. سيد درويش في نظري أعظم من عبدالوهاب وأم كلثوم، كان المواردى ينطوي على حنين جارف للماضى، وشديد السخط على المتغيرات الفنية المعاصرة، التي يراها هابطة ومفسدة للذوق الرفيع.

ما لفت نظري أيضا في شخصيته، هو ابتهاجه التام عن الحديث في السياسة، كانت علاقتي به قد تجاوزت كل الخطوط الحمراء، سمحت لنفسي

أن أسأله عن سبب عدم انشغاله بأمور السياسة، قال لي بدون تحفظ أو مواربة: السياسة في رأيي هي فن الكذب. السياسي يجب أن يتحلى بصفات قاطع الطربيع.. لا يعبأ كثيرا بالدين والأخلاق والمشاعر الإنسانية.. ثلاثية السياسة هي المصالح والثروة والسلطة.. أقرأ كتاب ميكافيلي "تدرك هذه الحقيقة.. كل من حولي يتصور أنني غافل عما يجري في الواقع السياسي.. هم الجهلاء ولست أنا الجاهل.. أنا أتابع كل صنوف النصب والاحتيال وتحليت بفضيلة الانصراف عندما قلت له إن شكسبير كان يملك وعيا سياسيا عاليا، أعجبته الملاحظة، وقال بانفعال ساخن: أعظم ما في الكاتب المسرحي شكسبير هو أنه حول وعيه إلى فن خالد.

استغرقتني شواغل كثيرة، فانقطعت لفترة طويلة عن زيارة عبدالستار المواردي: كانت تعرض لي مسرحية على مسرح سيد درويش "أوبرا الإسكندرية حاليا"، تحمست لدعوته لمشاهدتها ومعرفة رأيه فيها، التقيت بالصحفي الشاب مصطفى عبدالله قبل أن التقي بالمواردى.

عرف مني أنني سألتقيه فقال لى: لاتنس أن تعزبه في مصابه الأليم علمت منه أن سناء وجدي توفت بذلك المرض الخبيث العضال. صعدت وأنا في غاية القلق والتوتر، جلست أمام مكتبه وأنا لا أعرف ماذا أقول، رأيت شخصا آخر أمامي. إنسان ذابل، شاحب الوجه. يقلب أوراقا بلا حماس. عيناه مطفئتان. يد مرتعشة. زاد جسمه نحولا على نحول شاراد الذهن. فاقد لليقظة والوعى، غير قادر على قول كلمة ترحيب. قلت له بحزن حقيقي: "ألقىة في حياتك" قال بلهجة مكسور الخاطر. لماذا تبقى

حياتي.. ما الفائدة؟ سألته عن إرادته الحديدية، عن إيمانه بفن الصحافة عن الناقد الجبار في داخله، عن وعيه الناقد بالمصير الإنساني، قال لي بنظرة كسيرة وهو يرمي بنظارته فوق الورق: كانت الصحافة هي حيي الأول والأخير.. جردت نفسي من أي مشاعر خاصة، حتى لا أكون للصحافة منافسا أو غريما.. إلى أن التقيت بسناء وجدي فأصبحت هي المنافس والغريم.. أصبحت حيي الأول والأخير.. رحلت سناء وأخذت معها رغبتي في مواصلة الحياة.. كان حبا طاهرا نقيًا، بعيدا عن الشهوات. لم يتمالك نفس. استسلم لبكاء مر أليم.

لم أفكر لحظة في دعوته لمشاهدة مسرحيتي، لم يكن الظرف مناسباً بأية حال، دعوته لتناول الغداء في كازينو "قصر النيل" قال إنه لم يعد يتذوق الطعام، بكسرة خبز وقطعة جبن، ويتغدى ببضعة ملاعق من الفول، أدركت بيقين داخلي أكيد أن عبدالستار الموادي لن يقيم في دنيانا وقتنا طويلا، لم تمر بضعة شهور حتى جاءني نبأ وفاته، لم يمض في جنازته كثيرون. لم يكن له أصدقاء من الصحفيين والفنانين، كان يقنات من أمجاد الماضي العتيد، كان غاضبا على ما يجره حوله، قرأت تعليقا لصحفي كبير بمناسبة تأبينه: عاش وحيدا.. توحد مع حبين.. حب الصحافة وحب سناء وجدي.



## صلاح خدام

لم تمض بضعة شهور على تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا عام 1985، حتى انضم إلى السرية التي أقودها ضابطان سوريان في ميعة الصبا والشباب، يحملان على أكتافهما رتبة "الملازم أول"، صلاح خدام والراهيم قنوت، لم تلفت نظري شخصية صلاح خدام، بدا بسيطاً، متساهلاً خالي البال، لا يتحمس لمناقسة تجهد العقل وقد يترتب عليها خلافات، لاحظت أنه يميل إلى الحيلة والحذر، بحكم غربته عن أهله ووطنه الشمالي، ولا يتعجل الاندماج في المنظومة العسكرية الجديدة عليه، والتي انضم إليها، لاحظت أنه يميل إلى العزلة.

الانطواء داخل ملجأ إقامته بالموقع، بعد الفراغ من التدريب، لم أعرف كيف يقضي وقته وحيداً إلا عندما زرته في الملطأ، ورأيتته مستغرقاً في قراءة ديوان شعر "لنزار قباني" عندما قلت له إنني أحب الشعر، وقد قرأت الكثير من في صباي، وأحفظ بعض الأبيات للمنتبي وأبو تمام، ومازلت أتابع القراءة بمتعة وانسجام، عندما قلت له ذلك تفتح قلبه وتحدثنا طويلاً عن شعر المنتبي وأبوتمام وغيرهما من فحول الشعراء.

وضعت تبدي على ديوان نزار قباني وقلت له بمودة وتقرب: يبدو أنك رومانسي"، بدوت كأنني أطلقت سراح مشاعره، فاندفع يقول بلا

حرج: الحب هو أكسير الحياة.. لا معنى للحياة بدون حب الحب ينعش  
الأمال، ويخفف المتاعب والآلام، أدركت أنه يطلق العنان لمشاعره، ولا  
يشغل نفسه باقضايا السياسية والاجتماعية، ارتفع بيننا التكليف، فعلمت  
من أن نقله إلى مصر قد أبعده عن حبيبته لمياؤ، وهو يعاني من لوعة  
الفراق، ويتحرق شوقا للعودة إلى "اللاذقية"، حيث يتمرغ مع "لمياء"، على  
رمال شاطئها، رجاني أن أصحبه في إجازته الشهرية إلى الإسكندرية سألته  
عن سر حبه لهذه المدينة التي لم يرها من قبل قال لي وهو يغرس أقدامه في  
رمال شاطئ سيدي بشر وبلغة شاعرية: أخس بأن أمواج البحر تنقل  
رسائلي إلى "لمياء" في اللاذقية بأسرع من طريق البر، لم نتوقف عن تبادل  
أبيات الشعر المأثورة، من عمر ابن أبي ربيعة إلى نزار قباني، أصبحنا  
صديقين بلا خطوط حمراء، كان قد مضى عام، عندما رأيت أن الوقت قد  
حان لسؤاله، ذلك السؤال الذي قد يسبب له حرجا وربما يجلب عليه  
متاعب من نوع ما. سألته كيف تم اختيار الضباط السوريين الذين يخدمون  
بالجيش المصري في الإقليم الجنوبي؟.. رمقني بنظرة متفحصة، تستبطن  
قصدي من السؤال رجوته ألا يجيب إذا كان هناك ما يمنعه أو يتحرج منه،  
كانت ثقته بي قد تعدت كل التحفظات، صمت قليلا كأنما يرتب لانتقاء  
الفاظه، ثم قال بجدوء يشويه بعض التردد:  
لا.

أنت تعرف أن حزب البعث السوري يعتبر نفسه الأب الورحي  
للقومية العربية، بعد تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا تقلصت حرية التعبير  
وتعددية الرأي، كان لحزب البعث مآخذه على بعض القرارات

والتجاوزات. تصور الحزب أن من حقه التعبير عنا يراه متعارضاً مع آرائه.. لم يشأ أن يتنازل عن دوره القومي الذي يراه ريادياً، للقادم القومي الجديد من مصر، حدث التضييق، واتسعت مجالاته شعر الحزب أن النظام الوجودي الجديد يتخذ طابعاً شمولياً متحكماً، لا يسمح بالمراجعة وتعددية الرأي، فبدأ يقوم علينا، ويتحرك لتشكيل نواة لجهة معارضة.

هكذا تقرر استبعاد الضباط البعثيين من الجيش السوري، وندبهم للخدمة بالجيش المصري.

صمت صلاح خدام قليلاً ثم استغرق في ضحك هستيري حتى دمعت عيناه.

استغرق بعض الوقت حتى استعاد هدوءه، أخذ يقلب صفحات ديوان "نازك الملائكة"، وهو يقول بلهجة استرجاع، لم أكن بعثياً بالمعنى العقائدي، أعراي بعض الأصدقاء بالانضمام إلى حزب البعث والالتحاق بالجيش، بما لذلك من مزايا وعائد لا بأس به، كان أملئ، وما زال أن أكون شاعراً كبيراً.. لم أتنازل عن حلمي ولن أفكر في التنازل.. الشعر عندي هو طريقة حياة، يخلق معنى لوجودي.. أحلم بالتححرر من قيودي التي لا ذنب لي فيها.. أحلم بالعودة إلى "اللاذقية".. إلى أحضان حبيبي "لمياء".. لم يعد عندي كلام.. دعني الآن أكتب قصيدة من وحي حديثنا الذي أثار شجوني".

مرت السنة الثالثة على صحبتي لصلاح خدام، ونحن نقبع في خنادق موقع "أبو عجيلة" في سيناء، ترقى إلى رتبة النقيب فلم يشعر بأي

فرح.. حدث الانفصال في عام 1961 انكسرت الوحدة بين مصر وسوريا، حزن صلاح حزنا حقيقيا، رغم كل المآخذ والتحفظات.

كان حلم الوحدة العربية ثاويا في قلبه رغم أي تجاوزات، دفني نفسه في كتابة بعض القصائد الشعرية، لم يحرم نفسه من حلم العودة إلى "لمياء" حان وقت الرحيل. حمل معه ذكريات صحاري سيناء ووديانها، وفيها فيها، وأمسيات واعدة على شواطئ الإسكندرية. عاد إلى "اللاذقية" لم ينقطع عن مراسلتي علمت من خطاباته أنه تزوج من لمياء، واستقال من الجيش، وتفرغ لكتابة الشعر أرسل لي ديوانين يفيضان بمشاعر الحب والهجران.

ودارت الأيام واسنون، وحدثت نكسة يونيو 1967، احتل العدوان الإسرائيلي هضبة الجولان السورية، ضمن ما احتله من أراضي عربية. انقطعت رسائل صلاح لي وقتا طويلا.

كان قد مر عام على النكسة، عندما وصلني اليوان الأخير لصلاح خدام ومعه رسالة. لم يكن الديوان أشعارا في الغرام والهيام، ولوعة الفراق ومكابدات الهجران، وفراق الأحبة، وليالي العشق والسفر في دماء الأحباب، تضمن ديوانه الأخير أشعارا في المقاومة وحفز المهتم لإزالة آثار العدوان، وبأعجاب العرب، وإدانة لخزائن بعض العرب الخانعين.

فضفت رسالته، كانت تحوي أفكارا كثيرة، انشغل صلاح أخيرا بالقضايا السياسية والتاريخية قال لي في رسالته إن ديوانه الأخير قد نفذ من السوق، وحقق له الشهرة المأمولة، وأنه راجع نفسه وأدان الذين تسببوا في

انفصام الوحدة بين مصر وسوريا، وهو يحلم الآن بوحدة عربية من المحيط إلى الخليج بعد أن ضاعت من أيديهم فرصة نادرة للنهضة والتقدم والوحدة.

وعندما مات "عبدالناصر" في سبتمبر 1970، أرسل "صلاح" لي رسالة تتكون من سطر واحد: العرب هم الذين قتلوا عبدالناصر، ولم تقتله إسرائيل".



## إبراهيم قنوت

كان ثاني ضابط سوري، عمل تحت قيادتي، بعد صلاح خدام، في موقع "أبوعجيلة" في وسط سيناء، بدا مهتلفا تمام الاختلاف عن صلاح خدام، شخصية غامضة، صامت طوال الوقت يجب على أي سؤال بجملة قصيرة مقتضبة، ضمنت أنه يحمل في داخله غضبا مكتوما، لم أره واحدة بيتسم أو يضحك، أو يعبر عن مكنون نفسه، أو يتخذ من أي ضابط مصري صديقا له.

كانت له صفات جسمية خاصة، ممتلى الجسم، متوسط الطول، قليل الحركة، له ملامح وجه سورية خالصة، بياض البشرة، خضرة العينين، أنف بارز، شعر يجمع بين السواد والصفرة، فكان عريضا، وجه ممتلى شبه مستدير، نظرات باردة مفتقدة الحيوية.

أوحت لي تعبيرات وجهه وصمته الكئيب بأنه غير راض عن نقله من الجيش السوري للخدمة بالجيش المصري، بعد شهر من تحقق الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958، وجدت صعوبة كبيرة في التعامل معه وفضح صمته، كما ما عرفته عنه في البداية هو أنه من مدينة "حمص"، وهو من أسرة تعمل بالتجارة، ويفتخر بأن جذور أسرته تمتد إلى قدامى الفينيقيين الذين حدثني عنهم طويلا هربا من الحديث عما يجري الآن في الواقع المعاش، حكى لي كيف تزوجت أسرته مع نسل قبيلة عربية نزحت إلى

الشام بعد الفتح العربي، حيث تغلب الدم العربي على الدم الفينيقي، وأصبحت العروبة هي الدين والثقافة ونعقل القيادة في "دمشق" أيام "الأمويين".

حاولت مرارا أن أستدرجه في الحديث، حتى أتبين مكون ما يعتمل داخل عقله، ولا يريد أن يفصح عنه، كان يمتنع تماما عن الحديث في السياسة، ومع ذلك كان يقرأ الصحف ويحتفظ ببعض القصصات. يحتفظ براديو "ويلكو" ياباني، يتنقل بين يده وجيب "الأوفرول"، ولا يتركه في يقظته ومنامه، ولا يستمع إلا لنشرات الأخبار من معظم العواصم العربية وإذاعة لندن.. تعجبت كيف يتابع أمور السياسة ولا يتحدث في السياسة.

لم يكن عندي راديو ترانزستور في هذا الوقت أبدت إعجابي بالراديو المستورد الذي يحملة، فأبدى استعداده لبيعه لي، سارعت بالقبول فباعني إياه مقابل ثلاثين جنيها، وعندما عاد من إجازته الدورية رأيتة يحمل راديو "برانزستور" جديد، كبير نسبيا وأكثر فخامة، سألته عن السبب في هذا التغيير، أخبرني بأنه كان يريد جهازا ينقل المحطات العربية والأجنبية بوضوح. انتهزتها فرصة لسؤاله عن سبب اهتمامه بالأخبار وما يجرة في العالم، لم أقتنع بقوله لي: "هواية.. مجرد هواية".. عندما كنت أقضي إجازتي بالإسكندرية، لاحظ صديق لي الراديو "ويلكو" الذي أحمله في يدي، سألتني عن ثمنه، قلت له: "ثلاثون جنيها"، أخبرني أنه لا يساوي أكثر من عشرين جنيها، استغرقت في الضحك، وقلت في نفسي: "التاجر الفينيقي داخل إبراهيم قنوت تغلب علي الكرم العربي في نسبه".

مضت الأيام والشهور اتغرقنا النشاط التدريبي العسكري بعض الوقت. بدأ "قنوت" حريصا على اكتساب الخبرة العسكرية المصرية، التي تفوق الخبرة السورية بدرجة ما.

لم ينجح في اكتساب صداقة زملائه، بسبب صرامته وجديته وانطوائيته وجمود قلبه، ولأنني كنت أحميد مشاعري باعتباري قائدا له، أصبحت قريبا من عقله، بعدما اكتشف نزعتي العروبية الواضحة ومن خلال حديثي عن أحوال العرب، حديث من طرف واحد باعتباره مستقبلا لا مرسلا.

تنامت ثقته في شخصي، ولم يشعر بأنني حريص على اسبجوابه والتحري عنه، كنت أحدثه دائما عن همومي الثقافية والوطنية والقومية، بعيدا عن ولاء أعمى، لا يرى السلبيات، ولا ينتقص من الولاء للمشروع الوطني المصري والعربي.

وانفتح إبراهيم قنوت أخيرا بعد صمت طويل، عندما سأله عن موقف حزب البعث السوري من الوحدة السورية المصرية، بعد أن ظهرت منه دلائل معارضة واحتجاج، انطلق في الحديث عن نشوء وارتقاء حزب البعث، بعد انهيار الدولة العثمانية، بدءا من "ساطع الحصري"، ووصولاً إلى ميشيل عفلق، حتى الآن. ألمح إلى أن "دمشق" هي المعقل الشرعي للعروبة، قلت له بلهجة مفتحة: أؤمن أنك بعثي"، لم ينكر بل قلق بقوله: ولأنني بعثي، تم استبعادني من الجيش السوري لأخدم معك هنا في الجيش

المصري"، قلت له: "لم لا تعتبر ذلك شكلا من أشكال التوحيد والاندماج؟"

صمت قليلا ثم قال: حزب البعث مستبعد الآن.. هل تتصور وحدة في غياب حزب البعث؟"

رجوته أن يخفف عن قلبه، وتجربة الوحدة مازالت في بداياتها، عاد يقول بصراحة مهمومة: "أخشى أن يتعامل النظام المصري مع سوريا باعتبارها دولة تابعة، وهذا سيؤدي إلى كارثة، إذا غابت الشراكة" عدت أذكره بأن الشعب السوري وافق بإجماع نادر على الوحدة، والحكم على التجربة يحتاج بعض الوقت عاد يقول بحماس: لا بد من فهم طبيعة الشعب السوري.. لن يتنازل عن حرية التعبير وتعددية الرأي.. لن يقبل بالتبعية حتى لو صحت الشعارات.. لن يقبل أن يحطك بنظام أممي صارم كما يحدث الآن".

عاد يقول لي خلال مناقشات عديدة متوالية، إنه يحمل بين ضلوعه ولاء لاشك فيه لمشروع نواة الوحدة القائم، ولكنه يأمل في تصحيح بعض المسارات الجارية، التي تشكل خطرا على الوحدة، وتهدد بانتهائها، وهو لا يشك في نوايا المشروع الناصري الوحدوي، ولكنه يخشى من تجاوزات، تتعارض مع طبيعة الشعب السوري، وتقلباته غير المحسوبة.

زالت القلق بيني وبين "قنوت" أصبح يأمني على أفكاره وأسراره، طلب مني أن أوفق إجازتي مع إجازته، لأصحبه إلى القاهرة، ليتعرف على

معالمها التاريخية، وفقنا الإجازة، زرنا سوا الجامع الأزهر ومسجد الأزهر  
ومسجد الحسين وخان الخليلي، ذهبنا إلى الهرم وقف مشدوها أمام تمثال  
"أبو الهول".

قال بمحبة: أحسدكم على هذا التراث التاريخي المذهل"، قلت له  
بظرف: مافيناش من الحسد"، زرنا القلعة توقف طويلا أمام صورة محمد  
علي، ثم قال: كانت سوريا جزءا من إمبراطورية هذا الرجل العبقري" عاد  
يقول بلهجة متوازنة: هل ينجح عبدالناصر في تحقيق إمبراطورية عربية؟"  
طلب من أن نتوقف بقض الوقت أمام سور "صلاح الدين الأيوبي"، عاد  
يطلب مني أن نمشي بجواره، حتى يلمسه بكفيه، ويلتقط له بعض السور،  
جذبه الحنين إلى الماضي، فقال بشجن مؤثر: "نجح صلاح الدين في جمع  
شتات الأمة العربية تحت راية "دمشق". ربت على كتفي وهو يتسم  
ويقول: "هل ينجح عبدالناصر في تحرير بيت المقدس، مثلما نجح صلاح  
الدين؟!" حل يوم الجمعة أثناء الإجازة طلب من أن نصلي الجمعة في  
جامع "الحسين" وصليناها في الحسين وما أن انتهينا من الصلاة، وخرجنا  
من الباب الرئيسي للجامع، حتى قال لي ونحن نرتدي أحذيتنا: "كان  
عبدالناصر أكثر وعيا وحكمة من الزعماء السوريين.. أجل مشروع الوحدة  
عامين.. من 1956 إلى 1958.. كان يدرك أنه لم تنضج بعد الشروط  
الضرورية لتحقيق وحدة اندماجية.. وتحت ضغط الإلحاح اقترح وحدة  
فيدرالية، فلم يقبل طلبه.. استسلم في النهاية لحماس القادة وهدير الشارع  
السوري.. أخشى أن أثبت الأيام صواب رأي عبد الناصر، وبعد نظره".

طلب مني في إجازة أخرى تالية، أن أصحبه إلى الإسكندرية.. وذهبنا إلى العاصمة الثانية.. انبهر بشوارع المدينة ومبانيها وضواحيها القريبة من الساحل، قال لي إنها مدينة أوروبية، تفتقد الطابع العربي، ومع ذلك فهي تعجبه، زرنا المتحف اليوناني الروماني، توقف طويلا أمام قلعة "قايتباي". قضينا يوما كاملا في قصر "المنتزه" الذي أصبح حديقة شعبية بعد طرد الملك فاروق، عرضت عليه أن نقضي يوما على شاطئ البحر، نستحم ونعرض أبداننا للشمس، لم يتحمس للعرض، تعلق بأنه لا يجيد السباحة، وأن الشمس قد تحرق جلده الرقيق.

التقينا كثيرا في "تريانون"، و"أنتيوس" و"مونسنيور" وكافتيريا فندق "وندسور"، و"متروبول" و"سيسيل" أخيرا انفجرت أسارير وجهه. تخلى عن صرامته وكآبته. عزف تماما عن أحاديث السياسة وهموها، لاحظت أنه بدأ يتابع، بنظرة فضولية نهمّة، الفتيات الجالسات مع أحبابهن، والمارات في الشوارع، فرادي وجماعات، وعندما يشعر أنني ألاحظه، يعود إلى انضباطه، ويغطي مشاعره بتكشيرة كبيرة، كنت أعرف أنه غير متزوج، ولا ينشغل كثيرا بالأمر العاطفية، فما الذي جرى له؟ أردت أن أشاغبه ذات مرة، ونحن جالسان في محل "كاليبيا"، وهو لا يغيظ الطرف عن حبيبين غارقين في لحظة عاطفية، ما أن استعاد انضباطه، حتى قلت له بطرف: "ألا تفكر في الزواج من مصرية؟" استغربت أنه استغرق في الضحك بطريقة لم أعهدها فيه، قال وكأنه يبادلي ظرف بطرق: هل تريد من أن أحقق الوحدة المصرية السورية عن طريق الزواج؟ دخلت السياسة في العواطف، لا بأس ولا مانع. وعدني بأن يتزوج مصرية إذا قبلت الذهاب معه إلى سوريا.

وحل ذلك اليوم الصعب الأليم نجاح الانقلاب على الوحدة في سوريا في عام 1961 حدث الانفصال بين إقليمي الجمهورية العربية المتحدة، جرت الأيام بطيئة، حزينة، مشؤومة.

أصيب الشارع العربي بالذهول والشعور بالصدمة، تكسرت نواة الحلم، وانتشر الخوف من مقبل الأيام، تقرر عودة الضباط السوريين الذين يخدمون بالجيس المصرى، وصدر القرار. كنت جالسا فملجأ قيادتي. مصدوما شارد الذهن، عندما دخل إبراهيم قنوت، حاملا حقييته، ليؤدي طقس الوداع، تبادلنا حشنا باردا ثقيلًا، تبادلنا سلام عزاء، كأننا في مأتم، قال لي وهو يزرع دمعة ساخنة: أنا حزين اليوم، كما لم أحزن في حياتي. تمنيت أن تستمر الوحدة، رغم كل المآخذ والتجاوزات.. كان عبدالناصر أكثر وعيا وحكمة من شكري القوتلي.. ليته استجاب لطلبه بأن تكون وحدة فيدرالية، عاد يقول وهو يتعيا للانصراف: "لقد خسرت معركة، ولم تحقق الهزيمة التامة.. دعني أراك في دمشق في ظروف أفضل، وعندما تشرق الشمس من جديد.



## إلهام حسين

ما زالت عالقة في ذاكرتي، برغم بياض شعري، وتغطية أسناني بالكباري والطرايش، ظلت راقدة في وجداني أكثر من غيرها ممن عرفتهن، كانت زميلة وصديقة لأختي ضفاء، في مدرسة الأميرة "فايزة" بحي محرم بك بالإسكندرية.. تعرفت عليها عندما كانت تأتي إلى منزلنا، لتستذكر دروسها مع ضفاء، قصيرة القامة وأنا طويل، أول ما لفت نظري إليها عيناها العسليتان، بشرتها بلون اللبن المصفي، صفائرها طويلة، شعرها أسود فاحم، ناعم كالحريرن ممتلئة قليلا، صوتها هادئ "خفيض"، تألفها من أول لقاء وكأنك تعرفها منمن.

ملابس بسيطة أنيقة، زاهية ألوانها، انشغلت بها كثيرا، أكثر من انشغالي بدروسي في الثانوية العامة، تواصلت اللقاءات البرينة في منزلنا، استشعرت اهتمامي بها، فبادلني اهتماما باهتمام، أنا بطبعي خجول، لم أجرؤ على اقتحامها. أقصى ما فعلته هو انتظارها على باب المدرسة حتى تحل ساعة الانصراف، فأمشي وراءها دون أن تلحظني، من حي محرم بك إلى منزلها في حي "منشا" أحس بالراحة، وأحرص على ألا تنتبه لمتابعتي لها. يبدووا أنها كانت تلاحظني، أبطأت الخطي ذات مرة، توقفت فجأة والتفتت إليّ. دعيتي لصحبتها، تبادلنا كلمات قليلة غرقت في خدلي.. احتوتني بنظرة حانية ودودة.

هكذا سرى الدفء والطمأنينة إلى قلبي.. وتواصلت لقاءات الطريق، بجوار الترام، ووسط حشود الطلبة والطالبات فوجئت بأختي صفاء ذات يوم، تقدم لي زجاجة "مولونيا" صغيرة، وتقول لي: هذه من إلهام مفاجأة لم تخطر لي على بال، الطبيعي أنني أنا الذي أقدم لها هدية، لم يسمح مصروفي الشخصي بأن أقدم لها هدية من مستحيل أن أطلب من أبي أو أمي ثمن هدية، انفجرت مشاعري بحب عارم، قدمت لها، ونحن نتمشى من مدرستها إلى منزلها، كيسا من الحمص وآخر من الفول السوداني، أبدت فرحتها وسعادتها وهي تتقبل هديتي بامتنان.

شمت أمي رائحة الكولونيا التي مسحت بها وجهي، سألتني عن مصدرها، قلت إنها هدية من "إلهام". لم أكن أعرف كيف أكذب، نصحتني بالانشغال بدروسي حتى أحصل على المجموع الذي يؤهلي كلية الطب، كما أحب وأتمنى، بدت النصيحة كإشارة احتجاج على استمرار هذه العلاقة البريئة، ومع ذلك لم أتوقف عن رؤية إلهام، وتوصيلها إلى منزلها، ثم تطور الأمر إلى ما هو أكثر، كنت أذهب إلي بيتها في المساء، وأقف طويلا تحت شبك حجرتها، انتظر حتى تطل من الشباك، فأحييها وتحييني، نتبادل همس كلمات، لا تصل معانها إلى الأذن، أحيانا ما كانت تشير لي بالانتظار، تنزل من شقتها بالدور الرابع، تدعوني لصحتها إلى مكتبة قريبة، تشتري قلم رصاص، ثم تقول لي بعدوبة: تظاهرت بحاجة لهذا القلم حتى أراك"، قدمت لها كيس اللب الذي في يدي، اعتذرت عن قبوله حتى لا يفتضح أمرها، أعود إلى منزلي لاستذكر دروسي بهمة ونشاط،

تسألني أُمِّي أين ذهبت، فأقول لها أي شيء إلا الحقيقة. تعلمت فن الكذب البريء، كتبت لها خطابا ساذجا، فبادلتني سذاجة بسذاجة.

هكذا كانت البداية، بداية القصة، قصة الحب الأول، كما يسميها البعض، ثم قامت ثورة يوليو 1952، ظهرت نتيجة الثانوية العامة، لم أحصل على مجموع كلية الطب، قررت التقدم للالتحاق بالكلية الحربية، فزت بالقبول. انخسرت علاقتي بالإسكندرية في إجازة قصيرة "خميس وجمعة"، مرة كل شهر، نتمشى قليلا في الشارع الهادئ الموازي لقضبان سكة القطارات، التي نسمع صفيحها كأصوات صفارات إنذار، تذكرنا بموعد الفراق.

شغلتنني في سنوات الكلية الثلاث أحداث ثورة يوليو المتسارعة دونما توقع أصبحت غريما لا يقاوم لحي لإلهام، أصبح عبدالناصر مثلا أعلى لأحلامي، أول رئيس مصري منذ ألفي وخمسمائة عام، منذ غزو الفرس لمصر، غوتني مراهقتي الفكرية أن أقوم بدور مثل دوره في مقبل الأيام، خطب فينا عبدالناصر احتفالا بتخرج دفعتي، حدثنا عن غارة إسرائيل على قطاع غزة، وقتلت خمسين ضابطا وجنديا مصريا. حملت النجمة الأولى على كتفي انتظرت حتى استلم أول مرتب شهري، حيث عملت بمعسكر مصطفى كامل بالإسكندرية، وقفت ببدلتي العسكرية تحت شباك إلهام، بدت فخورة بي وهي تسير بجانتي في شارع الذكريات، قدمت لها أول هدية وأنا غارق في خجلي المعهود، زجاجة عطر "أولدسييسى" ألحقت بأنها لن تتمكن من استعمالها إلا بعد إعلان الخطبة، وتواصلت اللقاءات البريئة.

تسارعت أحداث الثورة، أصبحت مهووسا بالتحويلات الوطنية الكبرى الجارية، الإصلاح الزراعي، قانون العمل، صفقة الأسلحة التشيكية، تأميم قناة السويس، أخذت أحدث إلهام عما يجري في مصر، لم أجد أذنا صاغية، بل أبدت شعورا معلنا بالملل، كانت تفكر في شيء آخر، متى أتقدم لخطبتها؟ دعوتها لمشاهدة فيلم تاريخي في سينما مترو أبدت دهشتها من اختياري لنوع الفيلم، استجابت لعرضي على سبيل ترصيتي. حجزت في حفلة الثالثة ظهرا، وفي درجة "الوج"، حتى نكون وحدنا، ما أن انتصف الفيلم حتى احتويتها في صدري، وانهملت عليها بقبلات عينية لا تتوقف، لم أعبأ بمقاومتها، وتحول الموقف العاطفي إلى معركة، استأذنت في الذهاب إلي الحمام ولم تعد.. لم أجرؤ على معاودة الاتصال بما خجلت من نفسي شهورا.

عاودت الوقوف تحت شباكها وأنا يائس.. حدث مال م أتوقعه، استجابت لطلي التقينا في كازينو "الشجرة" في حديقة "الشلالات" بالغت في أسفي واعتذاري. قالت بمودة ودلال "لم أعرف أنك مراهق كبير"، عدت أحدثها عن إنجازات الثورة، فعادت تقول لي وهي تتحكم في دهشتها: "ما هي أغنيتك المفضلة؟" طلبت منها أن أعرف أولا ماذا تفضل، قالت لي برومانسية عاتبة: "أغنية عبد الوهاب.. افتكرني ياللي قلبك مش فاكرني.. افتكر يوم.. يوم.. وافتكرني"، سعدت بهذا التفصيل، كانت من الأغاني المحببة لقلبي عادت تسألني عن أغنيتي المفضلة، فقلت لها بعباء لم أعرف كيف حل بي "أغنية عبد الوهاب.. مشغول بغيري

وحيثه. وياريتني مانت هويته"، انتباها شعور بالصدمة، لم تستطع أن تتحكم في قلقها وتوترها جاء اختياري عفي الخاطر، ودون حساب للمناسبة، وفي غياب أي ذكاء عاطفي، مع أنني لم أكن سيئ النية، ولم أقصد أن ألمح لأي شيء. قال لي طبيب نفسي صديق، بعد ذلك بعشرين عاما، أنني اخترت هذه الأغنية، لأعاتب أُمي التي كانت تفضل أخي الأكبر، الذي استحوذ علي حبها.

هكذا انقطعت صلتني بإلهام، بدا أنها قررت مقاطعتي إلى غير رجعة، ذهب كل منا في طريق غير طريق الآخر، تزوجت زواجا تقليديا، أنجبت ولدا وبنيتين، أخذت أحلام الثورة تتراجع تحت مطارق الأعداء، انفصال الوحدة بين مصر وسوريا، حرب الاستنزاف في اليمن، هزيمة يونيو 67، اهتزاز شرعية يوليو باحتلال سيناء، حدث عبور أكتوبر العظيم 1973، لم يتحقق الرخاء، ولم تنشأ دولة فلسطينية وجاء ذلك اليوم الذي لم يخطر على بال، جاء بعد خمسة وعشرين عاما، عندما ذهبت لزيارة أختي صفاء في منزلها، وجدت في ضيافتها سيدة، تجلس بين صبيين في حجرة الصالون.. تأملتها بإمعان فاضح، ملامحها تذكرني بفتاة عرفتها منذ زمن، شحذت الذاكرة صرخت بلا وعي: "إلهام حسين" قالت بصوت واثق: ألا تذكرني يا طلعت؟ رأيت أمامي إلهام أخرى سيدة بدنية مترهلة، تتحدث عن مشاكل الأبناء وغلو الأسعار والدروس الخصوصية، وأزمة المواصلات وانشغال الزوج بجموم الحياة، ومع ذلك لم تفقد بعينيها العسلتين، تخفيان برق حلم مكسور، ساد صمت اللسان وسط هدير استرجاع باطني للحظات من زمن مضى وتولى.

انتهزت فرصة انصراف الصبية للعب، وانشغال صفاء بإعداد الغداء، قلت بحرارة:

- أعتذر عما حدث.. سامحيني.

- المحب لا يعتذر.

- لم أكن أفهم في أصول الحب.

- كنا أطفالا.. لا نعرف كيف نحول الحب إلى رباط.

- خسرنا اللعبة.

- ربما كنا وصلنا إلى نفس محطة الوصول.. زوج وزوجة وأطفال وحساب مصروف البيت.

استغرقت في ضحكة شبابية، دمعت لها عيناها، قالت في لحظة استعادة طافية فوق السطح:

- أستطيع أن أسمعك الآن.. حدثني عن أخبار ثورة يوليو.. هل مازالت بخير؟

تذكرت ما قلته لنفسي ذات يوم، وأنا قابع في خندقى، غربي السويس، اثناء حرب الاستنزاف، وأنا أعاني من مرض اكتئاب الخنادق، مثلما أعاني من الشعور بالغربة، وآلام حالة اللاسلم واللاحرب.  
ما أعجب دنيانا.. ضاع الحب وضاعت أحلام الثورة.. ما معنى ذلك؟

هكذا شغلت نفسي في كتابة القصص والروايات والمسرحيات،  
لأبحث عن معنى ضائع، أبحث عنه فوق صفحات ورق، بعد أن ضاع فوق  
ثنايا الأرض.

ذكرني اكتثابي بقولة "أليركامى" حياة بلامعنى.. يلزم أن تعاش.



## عماد كامل

جمعتني بعماد كامل صداقة غير مألوفة صداقة تعدت حدود العلاقة الرسمية بين قائد ومن تحت قيادته، صداقة بين قائد السرية وقائد إحدى فصائلها الثلاث، لم تتأثر العلة بفارق السن والرتبة، كان عماد يصغرنى بعشر سنوات، وكنت أنا برتبة الرائد وهو برتبة الملازم، انضم إلى وحدتي بعد تخرجه، بعد تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا عام 1956.

كنت بطبيعتي أراعي الجانب الإنساني في تعاملي مع المرؤوسين دون الإخلال بمستلزمات الانضباط العسكري، الرحمة والمودة في أوقات الفراغ، والحزم والصرامة أثناء العمل، اقترب مني عماد بحميمية واضحة، شعرت أنه يتعامل معي باعتباري أخاه الأكبر قبل أن أكون قائده، أخذ يحكي لي تفاصيل حياته الخاصة وحياته الأسرية، أصبحت أتكامل معه باعتباره أخي الأصغر، أحكي له بعض دخائلي الخاصة، بما لا يؤثر على روح الانضباط، كانت له ملامح وصفا تقرب الآخرين منه، مهذب يعرف ما يقال ومالا يقال، بشوش، متفائل، يهتم بمشاكل جنوده ويحرص على حلها، له علاقات طيبة مع زملائه، ينمي خبراته العسكرية بهمة وحماس، طويل عريض الصدرن وجه أبيض مستدير، متناسق الملامح، بنية جسدية قوية، مشدود العضلات، يمارس الرياضة البدنية بانتظام.

انضم عماد إلى وحدتي في جبهة سيناء في موقع "أبوعجيلة" توطدت الزمالة والصداقة، أخذنا نقشي أوقات الفراغ في لعب الشطرنج ساعات طويلة، لا يكف عن إطلاق قفشاتنا الظريفة، وهو يستمتع بنقل القطع بمهارة وذكاء، كنت أشعر أحيانا أنه يعتمد الانهزام أمامي في بعض الأدوار، بحيث تكون نتيجة مجمل الأدوار لصالحى، هو يدرك أنني القائد، ولا يصح أن يهزمني، ولا يمنعه ذلك من كسب بعض الأدوار، حتى لا تغيب المتعة، ولا يتحول اللعب إلى نفاق مفضوح، كنت أحرص على المساواة في المودة بينه وبين باقي قادة الفصائل، وفقا لقواعد القيادة الرشيدة، وتجنبنا لحدوث غضاضة، لم نكن نتحدث فيما يجرة في مصر من أحداث سياسية حاسمة، مثل صفقة الأسلحة التسيكية، وإعلان الدستور، وتأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي وغير ذلك، الحديث في هذه الأمور له حساسية خاصة بالنسبة للعسكريين، ثم إن عماد - بحكم سنه - لم يكن قد استوعب هذه الأحداث بوعي نافذ، إذا إنها كانت تمثل تحولات سياسية كبر لم يسبق لها مثيل في تاريخ مصر الحديث، كنت أشرح مغزى هذه الأحداث في دروس التوجيه المعنوي لقادة الفصائل مجتمعين، حتى ينقلوا هذا الوعي إلى الجنود أثناء دروس التوعية، طلب منى عماد أن يوافق موعد إجازته الشهرية مع إجازتي، حتى نقضي صحبة مدنية طيبة في القاهرة، وافقت على طلبه شريطة أن يصحبنا في الإجازة زميله ورفيق دفعته "بهاء علام"، حرصا على مبدأ المساواة في المعاملة، هكذا كنا نقضي ثلاثتنا الإجازة بالقاهرة، لم أكن قد تزوجت بعد، وكانت لي شقة صغيرة بحي الدقى، كانت أسرة عماد تقطن في حي العباسية، وتقيم أسرة "بهاء علام" في حي شبرا. كنا نقضي

وقتنا في أكثر من مكان، نجتمع في شقتي، نشاهد التلفزيون الذي دخل مصر منذ شهور نلعب الشطرنج، نختار أكعمتنا الشهية ونشرب الشاي والقهوة عدة مرات، أستمع إليهم وهم يحدثونني عن أحلام الصبا، كنا نلتقي عند ناصية شارع سليمان باشا أمام محل "الأمريكين"، أرقى محلات القاهرة آنذاك عماد وبهاء يتابعان الفتيات الآتية والرائحة بشبق المراهقة والصبا، يتبادلان تعليقات شبابية، تفرج عن انفعالاتهم، وأنا أشاركهم بابتسامة متحفظة منضبطة.. مازلت قائدهم حتى في أوقات التسلية والترفيه، لم يكن يفوتنا بالطبع ارتياد سينما "مترو" أو "قصر النيل" أو "رويال"، حسب نوع الفيلم، مرة يكون فيلما رومانسيا، وأخرى يكون فيلم مغامرات عنيفة.

كان قد مضى على الوحدة بين مصر وسوريا قرابة عام، انتظم تبادل الضباط بين الجيشين المصري والسوري، انضم إلى وحدتي ضابطين سوريين برتبة ملازم أول. أصبح عماد كامل أقرب ضباط السرية إلى قلبيهما، هو طبع ودود وحسن العشرة، متفتح العقل والقلب، تحولت علاقته بهما إلى صداقة عميقة، قرف من خالهما الكثير من عادات وتقاليد الشعب السوري، عن طبيعة مواصفات مدن وقرى سوريا هو يتعرف على سوريا شفاهايا، وهما يتجولان في أنحاء القاهرة سياحيا بصحبة عماد أثناء الإجازات، هكذا تحققت الوحدة بين الإقليمين على مستوى الأفراد، سمعت من عماد الكثير مما يدور بينهم من حوارات وأحاديث. فهتمت منه أنهما من أعضاء حزب البعث السوري، وهما يتعصبان لبعثيتهم أكثر من أي شيء آخر، استمرت العلاقة عامين حتى حدث الانفصال عام

1961، كان الحادث صدمة مروعة للجميع. حان موعد توديع الضابطين السوريين ليعودوا إلى الإقليم الشمالي، بدا الوداع أشبه بمآتم حزين، انهمرت خلاله الدموع مدرارا، تلقى عماد منهما وعدا صادقا بدعوته لزيارة سوريا.

مضت شهور قبل أن يدعوني عماد لحضور حفل تخرج أخته الكبرى من الكلية الأمريكية في حي العباسية قبلت الدعوى بارتياح، وفقنا الإجازة مع موعد حفل التخرج، أعترف أنني أعجبت بأخته، وهي تتسلم شهادة التخرج، فتاة رشيقة ممشوقة القوام، وجه ناصع البياض، ذات جاذبية خاصة ملفتة، وشعر أسود فاحم طويل، منسدل على كتفيها، ترتدي ملابس عصرية أنيقة منسجمة الألوان، لم تبارح صورتها خيالي وقتا طويلا، لم لا تكون شريكة حياتي، هكذا فكرت ثم قررت. عرضت الأمر على عماد، بدا فرحا بغير حدود، شعرت بأن الفكرة قد مرت بخياله، وطمئني أن تتحقق، لم يبق سوى تحديد موعد الزيارة، وطلب يد سهام كامل.

اصطحبت معي لزيارة الأسرة وتحديد موعد الخطوبة، ارتاحت أمي لمستوى الأسرة التتجمع بين التقاليد المحافظة والحياة العصرية الراقية، بدا واضحا أن هناك قبولا متبادلا بيني وبين سهام، أوقفتني ملاحظة. بدت سهام فتاة أرستقراطية متفتحة ومتحررة أكثر من اللازم وتعزز بنفسها، بما لا يتناسب مع طباعي الريفية الأصل، طلبت أن أتيها بضع مرات لمزيد منالتعارف، تكررت اللقاءات المنفردة في منزلها، شعرت بأن طباعه المتحررة لن تتمشى مع طباعي التي تجمع بين المحافظة والتحرر تلمست محاذير كثيرة لعماد، للاعتذار عن إتمام الزيجة بدا له الاعتذار بمثابة صدمة، صدمة يمكن

أن تؤثر على علاقة الصداقة بيننا، وهذا ما حدث بالفعل تراجعت الحميمية في معاملاتنا تولت الظروف حسم حالة الحرج هذه.

صدر قرار انتقالي للخدمة بالقاهرة، هكذا باعدت الظروف بيني وبين عماد. حرص على زيارتي في القاهرة أثناء إجازاته على فترات متباعدة لكن العلاقة لم تستعد دفئها القديم.

قامت ثورة اليمن عام 1962، تأزمت الأوضاع القبلية في اليمن، لم يكن هناك مفر من انتقال وحدات عسكرية مصرية لتأمين الثورة في اليمن، انتقل عماد مع وحدته للخدمة فوق جبال "صعدة" الشديدة الوعورة والتي تقطنها قبائل مسلحة، انقطعت صلتى بعماد، تعذر علي استقصاء أخباره، مر عام على الأوضاع المتأزمة في اليمن، فوجئت بزيارة صديقة ورفيق دفعتي "فؤاد مطاوع" في مقر عملي بالقاهرة قال لي بلا مقدمات: "البقية في حياتك.. عماد كامل استشهد في كمين يمني مسلح فوق جبال "صعدة". حزنت كما لم أحزن من قبل. شعرت أنني فقدت صديق عمري، جمعني به ذكريات صداقة ورفقة نضال، قلت في نفسي بدافع من الحزن والغم والنكد: ليتني تزودت أخته سهام، لنكون حبل وصل بيني وبين ذكراه.



## فوزي المنياوي

التقيت به لأول مرة في ندوة نجيب محفوظ الصيفية في كازينو "سان استيفانو" بالإسكندرية، كنت عضوا منتظما في الندوة، وكأنه ضيف طارئ غير متحمس للمشاركة المنتظمة.

أدركت أنه حضر لتهنئة نجيب محفوظ بفوزه بجائزة نوبل. أدهشتني هيئته، رحل في حوالي الستين من العمر، يرتدي نظارة سمكة فوق عينين جاحظتين منهكتين. شعر رأسه مشوش، لا يعرف المشط طرقه إليه، قميصه غير مكوي، بنطلون واسع متعدل، خال من الكسرة المعروفة، وجه رمادي لا يوحي بأي يقظة أو حيوية، منفصل عما حوله ومن حوله، لا توحى نظراته الجامدة بأنه يستوعب ما يقال، وإنه على استعداد للمشاركة بالرأي، استأذن في الانصراف قبل أن تنتهي الندوة، حرص على مصافحتي، وطلب من أن أقدم له أعماله القصصية والروائية، ليكتب عنها دراسات نقدية، شعرت أنني أمام شخصية محيرة، لا أعرف عنها الكثير، ولا أعرف أنه ناقد معروف، وقد اجتاحني فضول جارف لأعرف عنه المزيد، وربما يكون نموذجا متفردا لعمل أدبي ملفت.

علمت أنه على صلة قوية بشاعرة سكندرية ناشئة هي "ليلي فتحي" انتزت فرصة مواتية لمقابلتها في أمسية شعرية بقصر الثقافة الحربية، كانت تشارك فيها بقصيدة، دعوتها إلى فنجان شاي في بوفيهه القصر بعد

انتهاء الأمسية، وسألتها عن فوزي المنياوي علمت منها أنه قاض غير مشهور بفرع مجلس الدولة بالإسكندرية، وأنه قد أحيل إلى المعاش، وهو ينشغل بنشاط أدبي واسع.

يكتب القصص والروايات والدراسات النقدية، والسيئ الذاتية لكبار الأدباء والمفكرين من أمثال طه حسين وعباس العقاد ويجيي حقي، علمت أيضا أنه يعتزل في بيته بالأنفوشي، ويعزف عن المشاركة في المناسبات الأدبية والفنية والاجتماعية، تعجبت أنني لم أسمع عنه ولم أسمع أحدا يتحدث عن أعماله الأدبية، علمت من "ليلي فتحي" أنه أعزب ويعيش مع أمه في بيت الأسرة، ولا صلة له بإخوته أو باقي أسرته، وهو شديد التدين، يتكلم كثيرا كأنما يستعرض معلوماته، ولا يحسن الاستماع لأحد، وقد نجح في الفوز بوظيفة رئيس هيئة الفنون والآداب بالإسكندرية، ولا أحد يعرف كيف وصل إلى هذه الوظيفة، رغم أن أحدا لم يسمع عن أعماله المنشورة، وكأنها منشورات سرية، وهو يدير نشاطه الأدبي عبر التليفون بمهارة منقطعة النظير.

دفعني ما سمعته عنه إلى فضول ملح لمقابلتته والتعرف عليه وجها لوجه.

طلبت مقابلتته، دعاني لزيارته بالمنزل.. ذهبت إليه ومعني بعض كتيبي وعليها إهداء له.

أدهشني مظهر الشقة وما تحتويه، شقة مطلة على بحر النفوشن في عمارة كلاسيكية قديمة، باعها أحد اليهود المصريين، قبل رحيله بعد العدوان الثلاثي عام 1956، آثاث كلاسيكي قديم أيضا. السجاد

منحول الوب، كسوة مقاعد الصالون ممزقة، بقايا ستائر فوق الشبايبك  
منضدة السفرى بلا مفرش ومتآكلة الدهان والكراسى متأرجحة الأرجل،  
وتفوح رائحة غريبة من المطبخ، والحمام غير صالح للاستعمال، فوجئت  
بأمه تخرج من حجرة نومها وتجلس معنا بطريقة توحى بأنها تجلس مع  
أصدقائه بدون تكليف، الكتب مبعثرة في كل مكان، في الصالون والسفرة،  
وحتى في المطبخ والحمام، وأكوام منها فوق مكتبه، وبلا مقدمات أخذت  
أمه تضج بالشكوى منه، لا يريد أن يجدد أثاث البيت، رغم ألوف ألوف  
الجنبيهاى التى يحتزنها في حسابه بالبنك، يعيش على الكفاف ويبخل عليها  
بأكلة سمك أو طبق ملوخية بالفراخ، سألت نفسى من أى بئر خفى يتحصل  
على هذه الألق التى تتحدث عنها أمه، ولم أجد إجابة. عادت الأم تقول  
إنه ورث طبع البخل عن أبيه، مثلما ورث عنه بضعة ألوف كان يخفيها في  
درج سري في دولاب ملايسه. هكذا عثرت عن نصف إجابة السؤال:  
أقسمت لي أنها تعيش بفستانيين، ويرفض أن يشتري لها فستانا ثالثا،  
المدهش أنه لم يشعر بأى خجل أو حرج من شكاوى أمه، التى هي بمثابة  
فضائح معلنة، بل يشعر بالكثير من الزهو والاعتداد بالنفس، قامت أمه  
لتعد لي كوب شاي، فقال بعزة وكبرياء، إنه مشغول بإصلاح هذا العالم  
المعوج. ولا تشغلني السفساف وعرض الدنيا سألته ما إذا كان يجب أن  
يعيش حياة الزاهد المتصوف، ردت أمه من المطبخ الذى تجرته فيه  
الصراصيل: "الزاهد لا يحتزن ألوف الجنبيهاى، ويتحصل منها علي فائدة  
قدرها 10 % .

دخلنا في الجدل، أخذ يبصفح كتي باهتمام زائد، أبلغني أنه سيكتب عنها دراسات نقدية مستفيضة، وسوف ينشرها في صحف ومجلات الدول الخليجية، سألته عن الحكمة في هذا الاختيار، فقال إنه لا توجد مجلات نقدية محترمة في مصر، مثلما لا يوجد نقاد محترمون.. عاد يقول باعتزاز: رؤساء تحرير الدوريات الخليجية أصدقاء شخصيون ويدفعون بكرم.. بالدولار أو بالريال والدرهم والدينار، لم تمر شهور قليلة حتى أبلغني أنه نشر ثلاث مقالات عن مجموعة قصصية وروايتين لي في ثلاث مجلات خليجية، وطلب مني شراء هذه المجلات من السوق.

قرأت المقالات ولم أفهم منها الكثير، ملخصات للحواديب ولا حديث عن المغزى والمضمون.

أبلغني بأنه يعمل مراسلا للمجلات الخليجية الثلاث، وطلب مني أن أقدم له أفضل ما عندي من القصص والمقالات ليشرها في هذ المجلات، والحصول على مكافآت سوف يطير لها صوابي، لم ينس أن يذكرني بحقه في نسبة 25% من قيمة المكافآت، لم أصدق العرض، فقررت أن أجرب قدمت له بعض القصص، فحظيت بالنشر، ذهبت إليه لأستلم المكافآت سلمني إياها، وهو يشعر بأنه صاحب فضل، ولم ينس أن يخصم منها نسبته المتوية.

طلب مني أن أكتب دراسة نقدية عن آخر رواية صدرت له، صارحته بأنني لست متخصصا في الدراسات النقدية، ولا أكتب إلا ما أنا

مقتنع به، قال لي بجرأة مذهلة: سأكتب أنا دراسة عن روايتي وسأرسلها لجهة النشر باسمك"، قدم لي صورة من الدراسة وهو يقول: هذه هي الدراسة التي يفترض أنك كتبتها، ويجب أن تقرأها لتكون على علم بها.. تذكر أن المكافأة أكبر مما تتصور، ولن أحصل على حقي في النسبة المئوية، لم أفكر لحظة. رفضت العرض رفضاً قاطعاً لا يحتمل المراجع، واستأذنت في الانصراف، اتخذت قراراً لا رجعة فيه بقطع صلاتي بـ"فوزي المنياوي". لم أعد أرد على مكالماته التليفونية المتكررة هكذا اختفى من حياتي، مثلما لم يكن له وجود حقيقي في الساحة الأدبية، لم أعد أعرف عنه شيئاً سوى ما أقرأه في الصفحات الأدبية وفي الدوريات عن مشاركته في معارض الكتب والمناسبات الأدبية في بعض الدول الخليجية، من خلال دعوات استضافة منتظمة، تغطي تكاليف السفر والإقامة وماتيسر من مكافآت.

التقيت بـ"ليلي فتحي" في إحدى أمسياتها الشعرية بقصر ثقافة الأنفوشي. حرصت على أن أحصل منها على إجابة لسؤال ملح، قلت لها وأنا أودعا على باب قصر الثقافة: "لا أعرف سر تمسكك بصداقة فوزي المنياوي".. أنت الصديقة الوحيدة له في الساحة.

استغرقت في الضحك وبدا أنها قررت مصارحتي عندما قالت:  
أعرف أنك قد قطعت صلتك به. لو أخذت رأيي لما نصحتك بذلك.. فوزي المنياوي سمسار ذكي.. أقصد مدير أعمال.. لم لا تكن

عمليا وتستجيب للأمر الواقع؟.. لم أوافقها على هذا الرأي، لم أستطع أن أخفي غضبي وضيقى وأنا أنصرف بلا تعليق.

كان قد انقضى عامان عندما سمعت بوفاة فوزي المنياوي. ذهبت إلى سرادق العزاء، فوجدت أكثر من معز خليجي، يرتدون الجلابيب والعقالات، سلمت عليهم وعرفتهم بشخصي، حياني بجملة رئيس تحرير مجلة "خليجية معروفة". أشاد بأعمالي المنشورة في مجلته، لا سيما دراساتي النقدية عن روايات فوزي المنياوي لم أشأ أن أعلق.. دعوت للفقيه بالرحمة والغفران.. ذهبت إلى أمه لأعزيها طلبت مني بإلحاح أن أعاونها في طلاء البيت وتجديده وتغيير الأثاث.. أدركت أن ثروة فوزي المنياوي قد انتقلت إليها بعد أن تجاوزت الثمانين من العمر، لم يبق من فوزي المنياوي سوى أم وحيدة، تحاول استعادة حياة أنهكتها أمراض الشيخوخة، لم يبق منه سوى نوادر ذائعة الصيت.

## الفهرس

5	..... توفيق مختار
21	..... عبد الغني سلام
29	..... صبري واكد
37	..... زكي الدفراوي
49	..... أنور بدير
59	..... محيي بدران
65	..... ياسمين الزنجري
71	..... وحيد ثابت
77	..... سمير وهب
87	..... فرجينيا كارلي
105	..... محمود السيد
117	..... موسى داود
125	..... عبد الستار الماوردي
133	..... صلاح خدام
139	..... إبراهيم قنوت
147	..... الهام حسين
155	..... عماد كامل
161	..... فوزي المنياوي

## بطاقة توثيق

- الكاتب محمد الجمل
- من مواليد الفيوم عام 1935 .. وتوفي عام 2013.
- حاصل على ليسانس الآداب.. وبكالوريوس العلوم العسكرية
- عميد سابق بالقوات المسلحة
- عضو اتحاد الكتاب وعضو نادي القصة.. إضافة إلى العديد من الجمعيات والهيئات الثقافية بالقاهرة والإسكندرية
- أبرز مجموعاته القصصية: قبل رحيل القطار - هناك خطب ما - داخل الكتيبة - كوكتيل - كعب الخير - جوع القلب.
- من أبرز رواياته: المسافة الصغيرة - من كفر الأكرام إلى بارليف
- القصور تتصدع فوق الرمال - جواز المرور - حدث ذات مساء
- آزيس - غيبون بدون جنون.